مراتب الدلالة القرآنية بين الاجتباء والاصطفاء في ضوء العلاقات السياقية

المدرس الدكتور

صباح عيدان حمود

جامعة ميسان - كلية التربية

تقديم :

لدارس القرآن الكريم الحقّ في وقفة متدبّرة، تتناول بالبحث والتأمل المفاهيم والمصطلحات؛ لسبر حقّيقة معانيها في ذلك الكتاب المبين، على وفق سياقاتها الاستعمالية، وما آلت إليه هذه المفاهيم والمصطلحات في واقع الأمة نسبةً الى تلك المعاني الأصيلة.والمقارنة بين تلك الاستعمالات؛ لتحقّيق الدلالة المبتغاة من وراء استعمال مفردة معينة في سياق من دون اخر؛ يمكن ان يوصلنا الى دلالات مبتكرة تهدينا الى سبل المعرفة المتعددة. وإن هذه العملية المزدوجة في فهم حقّيقة المفاهيم القرآنية، ثم استعراض مراتب هذه المفاهيم في واقعها اللغوي المتقدم، وما تلا ذلك من تطورات في الدلالة؛ تُعتد خطوة ضرورية لفهم النص القرآني، ولامتلاك المقاييس والآليات لتقييم الفهم وضبط عملية تحرير تلك الدلالاتفي استعمالاتها النصية. وقد فتح البحث في دلالات هذه المفردات قديماً وحديثاً افاقاً جديدة في الفكر العربّي والاسلامي الفلسفي منه والعقدي فضلا عن اللساني. فكانت هناك جولات من التفكر والتدبر في حقّيقة هذه المعاني لاسيما فيما يتعلق بصفات المولى ﷻ، واخلاق الانبياء (عليهم السلام)؛ انتهت بعضها الى صراعات فكرية خطيرة وصلتالى حد التكفير والاخراج من الدين، وهو ما يثبت خطورة الانحراف في فهم دلالات هذه المفردات.

وفي الخطاب القرآني بنى نصية صغرى(وهي اية واحدة او بعض اية)، تشكلّ حضوراً دلالياً مكثفاً يمكننا الاستعانة بها لفهم الدلالة بوساطة المقاربّة بينها وبين البنى النصيةالكبرى، ونعني به السورة او مجموعة السور او حتى البنية الكلّية للنص

القرآني ، والذي يمكن الاستعانة به هنا هو السياقات المتماثلة في النصوص المتقاربّة في استعمال المفردات وكذلك الوحدة الموضوعية للدلالة.

وسنحاول في هذه الوقفة القصيرة، تحرير مفاهيم تشترك في ظاهرها بدلالات متقاربّة؛ إذ صنفها اللغويون ضمن شبكة المصطلحات المترادفة في القرآن الكريم – ومع غض النظر بموافقة وجود الترادف او عدم وجوده في النص القرآني - سنتابع مسيرة هذه المفاهيم في النص وما آلت إليه أوضاعها واستعمالاتها المختلفة. وسيسلط البحث دراسته لمصطلحي(الاجتباء والاصطفاء) وبيان مراتبهما الدلالية في ضوء البنية السياقية ومحاولة إبراز او ظهور دلالة جديدة يسببها السياق التركيبي المعجز في النص القرآني. وما تفرضه العلاقات السياقية من قوة تنظّم عالم النص داخلياً وخارجياً، فالمفردة لا ينحصر سياقها في جمل بعينها؛ بل إن السياقات الأخرى تزيد من القدرة التأويلية لدى المتلقي مما يضمن سلامة الفهم وسعته.

والقرآن الكريم يقرر بوضوح أن الله سبحانه اجتبى واصطفى من البشر أنبياء ورسلاً، كانوا موضع تزكية وتكريم وتشريف منه تعالى، فضلاً منه، ومنحة من كرمه ولطفه؛ ليكون هؤلاء المصطفون منارات هدى ودليل اقتداء للبشرية، يقيمون بسلوكهم وأعمالهم الحجة على الناس، ويُبرزون أطرافاً من الكمال الإنساني تستلهمه البشرية في سيرها لخلافة الارض، وإقامة الحياة الطيبة فيها.

ولم يبتعد المفسرون كثيرا عن مدونة المعجم العربّي في تعاملهم مع دلالة المفردتين وبيان العلاقة بينهما ؛ إذ قرروا انهما يكون انب مع ان متقابلة ومتبادلة، وهو ما ذكره الشيخ الطوسي في تبيانه صريحاً ولاسيما في حال بيان المعنى اللغوي للمفردة فيقول:((معنى اصطفى: اختار واجتبى وأصله من الصفوة))١،وهو المعنى نفسه الذي يشير اليه الطبرسي فيقول:((الاصطفاء والاختيار والاجتباء نظائر))٢ وفي مكان آخر يرى ان معنى((إن الله اصطفى، أي: اختار واجتبى (آدم ونوحا) لنبوته))٣، ويُرى ان هناك عملية تبادلية في الدلالة، يتبناها الباحثون في النص القرآني، فيذهب بعض المفسرين الى ان ((الاجتباء: الاصْطِفاء والاختيار))٤وايضا نجد هذا التداخل الدلالي في الكلّام عن معنى الاختيار فيذهب المفسرون الى ان

معنى((وأنا اخترتك)) اي: اصطفيتك٥. وكأن الجميع قد اتفقوا على ان هذه المصطلحات مترادفة في المعنى، فيصحّ ويحسن استعمال احداها بدلاً عن الاخرى، ولم نجد انهم قد فرقوا بين دلالاتها، اللّهم الا في بيان بعض القيم الدلالية في سياقاتها القرآنية، وهو ما سيحاول البحث تسليط الضوء عليه، وبيان الجديد من الدلالة الذي يمكن اكتشافه من العلاقات السياقية. وذلك على وفق المباحث الآتية:

المبحث الأول

مراتب دلالة الاجتباء

عند متابعة الاصل اللغوي لمعنى الاجتباء نجد انه يعني: ((جَبَيْتُ الماء في الحوض: جمعته، والحوض الجامع له: جَابِيَة، وجمعها جَوَاب))٦، وكأن الُمجْبى لا يقوى على جمع نفسه إلا بشيء يجمعه، وبزيادة تاء المفاعلة (اجتبى) لابد ان تكون هناك زيادة في المعنى ؛لأن زيادة المبنى تفضي الى زيادة في المعنى، وتوحي بزيادة العناية من فاعل الاجتباء للمُجتبى. وهذه المعاني التي يثبتها اللغويون، لاريب انها تحقّق سبقاً معرفياً في بيان الدلالة، فإنها تدّل على الدقّة والامتياز الخاصّ والاختيار. ونلاحظ ان القرآن استعمل هذه المعاني اللغوية كما في قوله تعالى:﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾(القصص / ٥٧). أي تجمع وتحمل إليه منتخبة من كلّ جانب. وفي قوله: ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾(سبأ / ١٣).جمع جابية وهي الحوض ونحوه، والأصل جوابي. ففي محصلة الكلّام عن الاجتباء، أنه في اللغة الاختيار الممزوج بالجهد المتقن لاستخلاص الأمثل من كلّ شيء٧.اما على مستوى الدلالة القرآنية السياقية فيمكن ان نجد مراتب دلالية عدة يمكن تصنيفها كالآتي:

أولاً: الاجتباء والتوبة

إنبيان معنى الاجتباء في استعمالات النص القرآني يمكننا قراءتها من السياق الداخلي لقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾(طه/١٢١-١٢٢). فنلاحظ ان هناك مراحل مهمة في مسيرة الدلالة؛ فبعد المعصية التي ارتكبها آدمعليه السلام تأتي الغواية بصورة مباشرة او متزامنة مع المعصية بدليل استعمال حرف العطف (الفاء)، ويأتي الاجتباء بالترتيب المتراخي بقرينة(ثم) ومعها التوبة والهداية

بقرينة الفاء والواو. فيلاحظ ان الاجتباء توسط هذه الامور الاربّعة فهو يمكن ان يُعدُّ حلقة مهمة في هذا الترتيب المعنوي لآدمعليه السلام. فالتعبير في الآية المباركة بكلّمة(اجْتَبَاه)، في سياقها البنائي يشير الى ما كان يعاني منه آدمعليه السلاممن تشتت بسبب ما سماه القرآن معصية لربّه مع غواية- مع غض النظر عن حقّيقتهما- كان من نتائجهما ظهور عوارض البشرية عليه وعلى حواء﴿بدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾(الاعراف/ ٢٢)،وهذا ما لاينسجم مع وجودهما في الجنة؛ فأصبحت لحظات الزمن متباطئة وحرجة ادت الى خروجهما من الجنة، وهبوطهما الى الارض، وقد كان الهبوط بصيغة الأمر ووعيد بالعداوة بينهما ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ﴾(طه/١٢٣).

فبعد كلّ هذا التفرق في مختلف جهات حياة آدم؛ وبعد ان أُخرج من الجنة - التي كان يجد فيها كلّ ما يريد- أصبح يجوع، ويعرى، ويمرض، ويعاني من الحرّ والبرد، ويضعف ويقوى، و. . و. وأصبح بحاجة الى من يساعده على جمع ذلك الشتات، ولملمة ذلك الانتشار، وتقوية ضعفه، ورفع عجزه بما يناسب ذلك كلّه، وبما يتطلّبه من تهيئة حاجات ما كان ليحتاجها، وما يفرضه من هدايات ودلالات. يأتي الاجتباء متراخياً بدلالة استعمال حرف العطف (ثم)،((كأنه كان ذا أجزاء متفرقة متشتتة فجمعها من هنا وهناك الى مكان واحد ثم تاب عليه ورجع إليه وهداه وسلك به الى نفسه))٨. فيلاحظ أن آدمعليه السلامقد بادر الى التضحية الحسّية والواقعية بكلّ ما لديه في سبيل الوصول الى مقامات جليلة وعظيمة عند الله، وقد ظهرت آثار هذه التضحية في البلاء الذي واجهه. .، فاستحقّ أن يجمعه الله إليه ،وأن يمنحه وسام الاجتباء لنجاحه في الامتحان.

فالتوبة إذن كانت في طريق الاجتباء، وهذا ما نلمسه في معنى قوله:(فتاب عليه) التي هي نتيجة حتمية ومباشرة، لتهيئة ذاتية قام بها آدم حتى يحصل على الجزاء، تاب هو؛ فتاب الله عليه، ورجع عليه بالرحمة والهداية، ولكن لا دلالة لكلّ رجوع وإنابة الى الله، ٢بة مهمة من مراتب الاجتباء.

ثانياً: الاجتباء والتلقي

ولو اردنا ان نتعرف اكثر على معنى الاجتباء لآدم(عليه السلام) يمكن ان نجري عملية مسح دلالي وتعويض نصي في سياق آخر؛ فنجد ان مرتبة التوبة على آدم(عليه السلام) مرت باختبار مقصود؛ حتى يكون من التائبين، ففي آية أخرى نجد ان التوبةلها سبب جديد﴿فَتَلَقَّى آدم مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة /٣٧)، وإذا ما قمنا بمقابلة هذه الآية مع قوله تعالى:﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى﴾(طه/ ٢٢)،ووضعنا الآيتين في معادلة دلالية وحذفنا العبارة المتطابقة فيهما (فتاب عليه):

ثُمَّ اجْتَبَاهُ ربّهُ + فَتَابَ عَلَيْهِ=فَتَلَقَّى آدم مِنْ ربّهِ كلّمَاتٍ + فَتَابَ عَلَيْهِ

فبعد حذف الجملة المتطابقة يتنج :

ثُمَّ اجْتَبَاهُ ربّهُ = فَتَلَقَّى آدم مِنْ ربّهِ كلّمَاتٍ

فالاجتباء إذن يتساوى سياقياً مع تلقي آدم من ربّه كلمات ، وهذا ينفعنا ان الاجتباء لم يكن وليد الصدفة؛ بل هو مرتبة جاءت عند عملية تلقي لكلمات بعينها كانت سبباً للتوبة، وهي نفسها يمكن ان تكون مساوية للاجتباء. و لا يذهب القارئ الى أن الباحث هنا يريد ان يقول بالتساوي الدلالي على نحو الترادف المعنوي؛ بل هو التساوي القيمي؛ اي ان القيمة الدلالية للاجتباء مساوية للقيمة الدلالية لتلقي الكلّمات.

والملفت ان الاجتباء وكذا التلقي ارتبطا بمقام (الربّوبية) -(اجْتَبَاهُ ربّهُ)و(فَتَلَقَّى آدم مِنْ ربّهِ)-وهو ارتباط ينفع متلقي النص القرآني في ان هناك عملية رعاية منطلقة من الربّ، فيها جانب من الارادة المقترنة بالشفقة والرحمة من لدن الربّوبية. كما وأن التلقي للكلّمات جاء مباشرة بلا واسطة، بدلالة وجود الفاء التي تفيد الترتيب المباشر، اشارة للقابلية التي كانت عليها روح المتلقي، وبدلالة(تلقّى) ايضاً التي فيها اشارة الى الاستعداد الامثل الذي كان يتصف به آدم(عليه السلام).وهذا يشجعنا ان نبحث عن تلك الكلّمات المتلقات؛ لمعرفتها وكشف مدى أهميتها في منح الاجتباء لآدم،وهذه الكلّمات كما يذهب اليه المفسرون هي، اما قوله المحكي في قوله

تعالى:﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(الاعراف/٢٣)،وقيل: هي قوله: (لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)، وفي رواية أهل البيت (عليهم السلام): أن الكلّمات هي أسماء أصحاب الكساء(عليهم السلام).٩

ومع غض النظر عن طبيعة هذه الكلّمات ونوعها؛ فإن هناك عملية تلقي حدثت، وكان فيها تفاعل بين آدم(عليه السلام)وتلك الكلّمات؛ وهو ما أوحى الى بعض المفسرين بدلالات مختلفة لهذا التلقي، وهي: اما ان يكون آدم هو فاعل التلقي؛ فيكون قد اطمأن لتلك الكلّمات واستأنس بها، فسأل الله تعالى بحقّها، أن يتوب عليه. او على قراءة من قرأ برفع (كلّمات)على انها فاعل التلقي١٠، فكأن الكلّمات تداركته بالنجاة والرحمة.

وهذا كلّه يُظهر ان الاجتباء ليس مجرد معونة لمن احتاج الى المعونة، بل الموضوع موضوع مكافأة، وإعلان لمقام الاجتباء الرفيع، الذي يحتاج الى أسباب كامنة في ذات الشخص المجتبى (فتلقى آدم) أي: قَبِل وأخذ وتناول على سبيل الطاعة. وهو ما يساوي عملية الاجتباء التي تمثّل الجمع لشتاته ولقواه العقلية في عملية التلقي هذه .ونحن نذهب الى ان السياق التركيبي، وكذلك قوله تعالى: (من ربّه) لا يحتمل القراءة الثانية بل ان التلقي هنا أخذُ آدم للكلّمات من اللّه باستقبال وقبول وتعلّم وعمل. والسياق يحكم أن آدم(عليه السلام) ندم على مخالفة أمر الله الارشادي في ترك الأولى، وأراد التوبة والرجوع الى مقام الأولياء المتبعين لإرشاد اللّه في العمل والترك؛ وصار يطلب الوسائل التي توصله لله، فيعلمه كلّمات توقفه في مرتبة التائبين.١١ وهو المقام الطبيعي جدا للاجتباء، ولم اجد من المفسرين من حاول ان يقابل بين هاتين الآيتين ليكتشف دلالة الاجتباء في ضوء الاستعمال القرآني.فقد كانت هذه الكلّمات مؤهِلةً لآدم، أو انه كان مؤهلاً لتلقيها والايمان بها ليُجتبى فيتوب الله عليه ،ليصل بعدها الى رتبة أعلى وهي رتبة الهداية.

ولو اردنا ان نحقّق في بيان دلالة جديدة للتلقي؛ يمكن ان نعكس الدلالة ونحصل على أن التلقي الحقّيقي لأي نص الهي يدخل ضمن عملية الاجتباء،

ولاسيما تلقي النص القرآني، فلا يمكن ان يكون للمجتبين بنفس مستوى غيرهم من المتلقين .بل ان تلقي المجتبين يسبق بمراتب تلقي الذين لا يحضون بصفة الاجتباء.

والملفت ان الأجتباء خُصّ به آدم دون حواء، وحتى المعصية والغواية والتلقي، لم تسند نحوياً الى حواء، مع انهما اكلّا من الشجرة معاً. وهو ما يثير الاستفهام حول دور حواء في ذلك الخروج من الجنة؛ وما هو نصيبها من الأجتباء؟؟ والذي ذهب اليه الثعلبي في بيان ذلك بقوله:((وإنما خص الله تعالى آدم بالذكر في التلقي، والتوبة، وحواء مشاركة له في ذلك بإجماع، لأنه المخاطب في أول القصة، فكملت القصة بذكره و حده))١٢؛ فيه من التنويه الى الروعة الاسلوبية التي توحي بطيّ السرد بعدم ذكر الشريك في القصة على الرغم من ان الخطاب في النهي كان موجهاً اليهما جميعاً،﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/ ٣٥) فالمسؤولية عن ذلك يتحملها من له القوامة وان الاجتباء له خاصة. فلا وجه لما قيل: ((فلأن المرأة حرمة ومستورة ، فأراد الله تعالى السترلها، ولذلك لم يذكرها في المعصية))١٣؛لأنالقرآن في آيات أخرىاشارالى انهما حاولا معاً معالجة الأمر حين ظهرت عليهما عوارض الخروج من الجنة.١٤

ثالثاً: الاجتباء والهداية

ومع الاجتباء نجد ملازمة الهداية في قوله: (وهدى)،فالجمع بين الاجتباء والهداية واضح من استعمال الواو العاطفة، فإذا ذهبنا مع من يرى ان الواو تفيد مع الجمع الترتيب١٥، عندها تكون العلاقة بين المتعاطفين هي علاقة تتابع دلالي اسنادي ويُعد من ابرز العلاقات السياقية التي تتحكم بربط سلسلة التراكيب النصية بعضها ببعض، وتكشف عن البنية المحورية للتركيب. فتكون الهداية معها ملازمة الى رتبة الاجتباء، ويمثلان محوراً دلالياً واحداً، وهي ايضاً عملية كشف جديدة لمستوى دلالي ورتبة جديدة للاجتباء ،تتضمنها الهداية كونها تستبطن اجتباءً للمهدي، وهذا ما يمكن ان نستفيده من مقارنة استعمال القرآن الكريم للهداية مع الاجتباء في مقامات الانبياء الاخرى؛ إذن لاحظ هذا التلازم بينهما ايضاً في اجتباء إبراهيم(عليه السلام)الذي جاء بعد مرحلة بحث وتفكر في عملية معرفة الإله، يوضحها القرآن بقوله:﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ

رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الانعام/٧٦-٧٩)، فقد ذهب بعض المفسرين الى ان إبراهيم عليه السلام((إنما قال ذلك في زمان مهلة النظر، وعند كمال عقله وحضور ما يوجب عليه النظر بقلبه وتحريك الدواعي على الفكر والتأمل له، لأن إبراهيم عليه السلام لم يخلق عارفاً بالله تعالى، وإنما اكتسب المعرفة لما أكمل الله تعالى عقله وخوفه من ترك النظر بالخواطر والدواعي))١٦، وعليه فهو حين تجاوز الامتحان والاختبار وتبرأ من الشرك واحنف لله تعالى جاءه الاجتباء في قوله :﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل/١٢٠-١٢١)، فبعد ان وضع إبراهيم عليه السلام في بوتقة الاختبار في مرحلة البحث عن الهٍ يعبده، فكان قانتاً ولم يمارس الشرك مع قومه ،فهو لم يعبد هذه الكواكب؛ بل اراد ان يكتشف الهه بعد أن لم يقتنع بآلهة قومه، وأحسّ بنعمة المولى عز وجل وطلب منه الهداية في قوله: ﴿قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾، فقد طلب الهداية من ربّه بعد ان شعر بحاجة الى توجيه العبادة لديه ؛لأن ((إبراهيم كان يريد شخصياً أن يفكر في معرفة الله وأن يعثر على المعبود الذي كان يجده بفطرته النقية في أعماق ذاته، إنه كان يعرف الله بنور فطرته ودليل العقل الإجمالي ،إذ إن كلّ تعبيراته تدّل على أنه لم يكن يشك أبدا في وجوده، ولكنه كان يبحث عن مصداقه الحقّيقي، بل لقد كان يعلم بمصداقه الحقّيقي أيضا، ولكنه كان يريد أن يصل عن طريق الاستدّلال العقلي الأوضح الى مرحلة (حقّ اليقين). وقد وقعت له هذه الحوادث قبل نبوته، ويحتمل أن تكون في أول بلوغه أو قبيل ذلك))١٧.وهي كلّها امور تتناسب مع مرحلة الاجتباء التي كانت ملازمة للهداية ،فقد طلب الهداية (وهداه ربّه) ثم﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾والهداية في حالة آدم وإبراهيم عليهما السلام تقترن مع الاجتباء ، وهو ما ينبأ عن علاقة رتبية

بينهما. فكلّما وجدنا مفردة الاجتباء؛ نشاهد انه تتبعها الهداية﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل /٨٧)،وفي قوله تعالى: ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾(الشورى/١٣).

وحتى لا يتهمنا احدهم بعدم القول بعصمة الانبياء، نرى ان هذا ليس له علاقة بالعصمة المتحقّقة في علم الله تعالى؛ بل إنّ إبراهيم عليه السلام كان في مقام التحرّي والتعرّف على الربّ المدبّر للعالم؛ لأنّه لم يكن مكلّفاً بعد بإظهار نبوته، وصار بصدد التحقّيق والتحري، فعندئذٍ طرح عدّة احتمالات واحداً بعد واحد، ثم شرع في إبطال كلّ واحد منها، الى أن وصل الى الربّ والمدبّر الحقّيقي .ومعها أبطل مفهوم العبادة للكواكب الذي كان يمارسه قومه آنذاك بالحجة والبرهان، وعلى هذا يكون معنى قوله: (هَذَا ربّي) مجرّد فرض لا إذعان قطعي، بتحقّق الربّوبية لما يراه من الكواكب، وقد روي هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل عن قول إبراهيم: (هَذَا ربّي) أأشرك في قوله: (هَذَا ربّي)؟ فقال عليه السلام: ((لا من قال هذا اليوم فهو مشرك، ولم يكن من إبراهيم شرك وإنما كان في طلب ربّه وهو من غيره شرك))١٨، فالبحث عن الحقّيقة كان يتلاءم ومرتبة الاجتباء، والهداية.

اما إذا ذهبنا مع من يرى ان الواو لمطلق الجمع -اي مع غض النظر عن دلالتها على الترتيب- فإن الهداية والاجتباء يصبحان في مستوى دلالي واحد، وهي عملية كشف عن دلالة جديدة للاجتباء، كون الهداية مفسرة لمعنى الاجتباء، إذ نجد في آية واحدة فقطمن القرآن أن الهداية متقدمة على الاجتباء في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(مريم/ ٥٨). وهو ما يقوي دلالة أن تكون الهداية هي نوع من انواع الاجتباء او مرتبة لاحقة له.

وهذا يلزمنا ان نعترف ان هناك رتبة اخرى تتوسط بين الاجتباء والاصطفاء وهي رتبة الهداية، وهو ما يجعلنا نطمئن الى ان الهداية مرتبة من مراتب القربّ متأخرة عن الاجتباء او مساوية له في الدلالة، وبهذا تكون سابقة للاصطفاء قطعاً، فيشكلّان

معاً قاعدة طبيعية لدرجة ارقى واعلى في القربّ وهي درجة الاصطفاء؛ لذا لامعنى لما قاله الراغب في مفرداته: ((واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد))١٩،فالتخصيص بالفيض الإلهي حاصل في الاجتباء والهداية، ولكن مع سعي في طلبهما، وان كان ذلك للأنبياء وبعض من يقارنهم من الصديقين والشهداء، فهم حصلوا عليه بعد ان وضعوا في الاختبار، وكان اجتباؤهم تكوينياً بنسبة معينة وليس بأكمله، حتى لانقع في دائرة الجبر التي تسلب الانبياء مكانتهم التبليغية والصفة البشرية التي يتصفون بها ، ولعل من المناسب ان نشير الى ان الاجتباء كان مرحلة تتكون من مراتب مهمة قبل الاصطفاء، فبعد التفرق على مستوى الاعتقاد- كما هي حال إبراهيم- يحتاج الى هداية وجعله على معتقد واحد، ولعل ما يذكره صاحب الميزان في تفسير آية سورة النحل قريب من توجهات الاستعمال القرآني ((والذي يعطيه سياق الآيات أن العناية تعلقت بمعنى الكلّمة الأصلي وهو الجمع من مواضع وأمكنة مختلفة متشتتة ،فيكون تمهيداً لما يذكر بعده من الهداية الى صراط مستقيم كأنه يقول: وجمعناهم على تفرقهم حتى إذا اجتمعوا وانضم بعضهم الى بعض هديناهم جميعا... بهذه الهداية الفطرية الإلهية، والمناسب لذلك أن يتصور لهم اجتماع وتوحد حتى تشمل جمعهم الرحمة الإلهية، ويهتدوا مجتمعين بهداية واحدة توردهم صراطاً واحداً مستقيماً لا اختلاف فيه أصلا))٢٠. وهذه الهداية الفطرية لها مراتب اخرى يمكن ان نتلمسها في تعليم التأويل، الذي يتضام سياقياً مع مرتبة الهداية والاجتباء.

رابعاً: الاجتباء والتأويل

وهو ما يتضح في مرحلة اجتباء يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(يوسف/ ٦)، وقد ذهب بعض اللغويين الى ان الاجتباء هنا بمعنى الاصطفاء والاختيار، فقد نُسب ذلك الى الزجاج٢١. وقد ذهب كلّ من الطبري والطوسي والطبرسي الى تقرير معنى الاجتباء بانه هو الاصطفاء والاختيار، وهم ينقلون عن الحسن - واظنه البصري – هذا المعنى٢٢،وقد تبعهم في هذا القول

جلّ من جاء بعدهم من المفسرين، وهو ما يحتاج الى تأن قبل الحكم بصحة دلالة الاجتباء هنا انه بمعنى الاصطفاء، وقد التفت صاحب الميزان الى ذلك فلم يثبت هذه الدلالة؛ لذا فهو يرى أن: ((معنى الاجتباء جمع اجزاء الشيء وحفظها من التفرق والتشتت، وفيه سلوك وحركة من الجابي نحو المجبى، فاجتباه الله سبحانه عبدا من عباده هو ان يقصده برحمته ويخصه بمزيد كرامته ، فيجمع شمله ويحفظه من التفرق في السبل المتفرقة الشيطانية المفرقة للإنسان، ويركبه صراطه المستقيم وهو ان يتولى أمره ويخصه بنفسه فلا يكون لغيره فيه نصيب))٢٣.من هذا يمكن ان نعرف ان اجتباء يوسف وتعليمه التأويل؛ لم يكن في بداية الأمر، ولكنه أُجّل الى ما بعد الاختبار والتمحيص، وذلك من دلالة قوله: (وكذلك) التي تفيد عاقبة الأمر، وسياق استعمال المضارع (يجتبيك) فيه دلالة على أن الاجتباء في المستقبل، وكذا قوله: (يعلمك) اي في المستقبل، ولو كان يوسف يعلم التأويل لما سأل أباه عن الرؤيا التي رآها وهو في سن مبكرة، وكان التأويل مؤجلاً الى حين اجتماعه بأبيه واخوته وقوله:﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حقّا ...﴾(يوسف/ ١٠٠)لأن تعلّم التأويل- وهو نوع من انواع الهداية- لم يكن الا بعد ان مرّ يوسف عليه السلام بعملية اختبار؛ فلم يذكر القرآن ان يوسف عليه السلام قد هُدي الى تعليم التأويل الابعد ان دخل السجن، وقد تجاوز الاختبار الصعب في بيت عزيز مصر، وما قامت به أمراة العزيز من المراودة وجمع النسوة ؛ فاجتباه ربّه بعد ان صرف الله عنه كيدهن نتيجة لما ابداه يوسف عليه السلام من مقاومة تجاه دعوتهن، وما طلبه بدعائه ﴿قَالَ ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾(يوسف/٣٣)، فهنا مرحلة من مراحل الاختبار ليوسف عليه السلام، فهو بين اختيار السجن وبين الاستجابة لدعوة النسوة، لكنه حبّب السجن فاجتاز الاختبار؛ ليقع تعلّم التأويل، وما يرافقه من الاجتباء، فكان كلّ ذلك قبل الاصطفاء، ولكنه مرّ بمرحلة الاجتباء والهداية ولازال يدعو ربّه في ان يُلحقه بالصالحين﴿ربِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(يوسف/١٠١)وهذا الدعاء جاء بعد

الاجتباء وتعليم التأويل، فهو لم يبلغ مرتبة الاصطفاء بعد؛ ولكن بعدها يقيناً انه هُدي وكان من المصطفين ؛لأنه من ال إبراهيم الذين اصطفاهم الله.﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الانعام /٨٤-٨٧).

والذي يمكن ان نستنتجه من عكس الدلالة؛ ان التأويل هو نوع من انواع الاجتباء الإلهي للفرد، فهو تعليم من الله لعبده، بدلالة تعلم الاحاديث او الإخبار عن الباطن، ولا يمكن ان يكون قائماً على اساس الاجتهاد او ترجيح احد المحتملات من دون القطع بدلالتها الحقيقية كما ذهب اليه المشتغلون بفهم القرآن. نعم، هذا النوع من التأويل يكون لمن يعمل بظواهر الامور فيحتكم الى سياق التعبير والعودة الى النص لتحديد قصد المبدع إيماناً بان القصد أمر ذاتي يكمن في البنية الداخلية للنص٢٤، فتكون الدلالة محتملة وتحتاج الى ترجيح، أما تعليم التأويل الإلهي؛ فهو لايحتمل التعدد في المعنى ،ولاسيما عند المجتبين؛ لأن هؤلاء يقطعون بالدلالة دون تردد، ومنها نستنتج ان التأويل هو كشف بواطن الأمور واستشراف الدلالة عن علم؛ بل ان القرآن يجزم ان التأويل يُعد خارج نطاق التاريخ وخارج المعرفة البشرية فله ((مرتبة تعلو على الحس وتتجاوز معطيات الواقع وتفسيراته المباشرة ؛ بل إن التأويل من حيث ارادة تحقّقه، يقع خارج سياق التاريخ))٢٥، وهو ما يتضح في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾(يونس / ٣٩)التي تجسّد العلاقة المباشرة بين العلم والتأويل، وان ممارسة التأويل لا يمكن ان تتحقّق الا بالعلم، وسياق الآية وما فيها من نوع العطف ودلالة (لما) على الاستمرارية في النفي؛ فإن التأويل لا يأتي ألا لمن اعطي العلم اللدني٢٦، ويؤيد ذلك ما حدث للخضر مع موسى عليه السلام. ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾(الكهف/ ٧٨)، فكانت وظيفة الخضر هو اظهار البواطن التي اكتنزته افعاله بخرق السفينة وقتل

الغلام وإقامة الحائط دون إجر، وهذا لم يكن الا لتعليم سابق حضي به الخضر عندما اختاره الله تعالى وعلّمه العلم اللدني الذي يحصل للعبد بلا وساطة بينه وبين ربّه، ويكون لأهل النبوة والولاية، وهو ما وضحته الآية المباركة: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾(الكهف:٦٥)، وهو ما حصل عليه يوسف﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾. فتعليم الله تعالى ليوسف من نوع العلم اللدني، واسناده الى التأويل، يفيد انه علم يتعلمه المؤول المُجتبى، فهو الذي له حقّ الكشف عن الاحاديث والرؤيا والاخبار عن اصول الاشياء ومعرفة المحكم والمتشابه كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(ال عمران:٧)فإذا كان هذا الرسوخ في العلم المهيأ لدنياً؛ فهو لا شك قادر على معرفة المحكم والمتشابه الذي ليس هو أخفى من العلم بتأويل الرؤيا او الاحاديث ومعرفة اصول الاشياء الغائبة.

من هنا يمكننا ان نذهب مع من يقول بأصالة التأويل وفرعية التفسير، فالنص القرآني استعمل مفردة التأويل ومشتقاتها اربّع عشرة مرة، في حين لم يستعمل التفسير الا مرة واحدة، فإن مصطلح التأويل هو السائد تاريخياً؛ ولكنه بدأ يتراجع ويكتسب دلالة جديدة ويفقد دلالته المحايدة. فصار التأويل مصطلحاً فضفاضاً، وربّما ينظر اليه بعين الشك والريبة٢٧، ولا نعلم بالضبط اي العوامل التي جعلت المصطلح القرآني الاصيل سلبياً، الا اننا نظن انها محاولات لصرف الدلالة عن حقّيقتها، وتغييب من كان قادراً على بيانها لأنه كان من المجتبين والمعلمين للتأويل؛ وليس ذلك التغييب والاقصاء الا لمصلحة التفسير المتسلط.

خامساً: الأجتباء والاسلام

يفهم من السياق القرآني فيما عرفناه من المباحث السابقة إن الاجتباء الربّاني للبشر يحمل معنى من العناية الإلهية، يخصّ بها بعض عباده ليصطفيهم بما يتصل بشأن وظائفهم الرسالية،وينتقل الاستعمال القرآني للاجتباء الى معانٍ أوسع ؛ لتشمل أمة بأكملها كما في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ

وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(الحج/٧٧-٧٨)، فالاجتباء في النص القرآني الأخير لا يخرج عن الدلالة اللغوية ولا عن استعمالات السياق القرآني للاجتباء الإلهي. لكنه لا يعني أن جميع المؤمنين المخاطبين في صيغة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) يدخلون في دائرة الاجتباء الإلهي؛ ذلك لأن صيغة الخطاب بالذين آمنوا لا تعني بالضرورة المؤمنين قاطبة، بل تصح أيضا لو كان الخطاب موجّهاً الى مجموعة منهم فقد ثبت من استعمالات النص القرآني ان الذين آمنوا قد تُطلق على الفرد الواحد؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(المائدة/٥٥)، فقد قيل ان: ((الذين آمنوا هو(عليّ) رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مقاتل، ويكون من إطلاق الجمع على الواحد مجازاً))٢٨؛ لذا فإن صيغة الخطاب هذه بعنوان الذين آمنوا لا تصلح دليلاً على ان يعمّ الاجتباء المسلمين كافة ،في حين هي بذاتها بحاجة الى دليل على هذا الشمول، فإن مضمون الاجتباء الذي أوضحناه في الآيات السابقة، يمكن ان يراد من عمومه خاصاً؛ لأن كثيراً من الذين يدخلون في عنوان الخطاب بالمؤمنين؛ لا يحقّقون شيئاً من ذلك المضمون فليس كلّ مسلم مجتبى، والدليل السياقي يدفعنا الى ان الاجتباء هنا هو(الجمع بعد التفرق)، فتكون الامة مجتباة في حالة التزام الدلالة اللغوية للاجتباء دون غيرها؛ لذا كانت شهادة الرسول حاضرة على الامة﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾(البقرة/١٤٣). فالعربّ كانوا ممزقين تحت وطأة القبليّة ،وجاء الاسلام لينقذهم ويجمع شتاتهم بعد تفرقهم، فاستعمل الاجتباء اللغوي، ولا يبعد وجود الاختيار للشهادة على الامم الاخرى وهو ما تكفل به قوله: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(الحج/٧٨).ولكن إذا سلمنا ان الاجتباء هنا بمعناه القرآني، من حقّنا إذن ونحن نقرأ النص ونتدبره أن نسأل، من هم هؤلاء المؤمنون المجتبون في القرآن،الذين وضعوا في رتبة الاجتباء الخاص؟

ومن الغريب ان نجد الآن من يصرف دلالة هذا التركيب الى العربّ بعينهم بقوله:((وهذا الوصف أو هذا التبرير قرينة على أن لهم مهمّة في الدنيا وهي إرشاد الناس وهدايتهم أيضا .وتعبير (أَبِيكُمْ إبراهيم) قد قُصد به العربّ ولا يمكن أن ينصرف الى غيرهم ، حيث كانوا يتناقلون ويعرفون نسبتهم بالأبوة الى إبراهيم وإسماعيل))٢٩ ولا نجد ان الاسلام والايمان كان حكرا على العربّ، ومن ذرية إبراهيم أقوام ليسوا من العربّ . ولعل المقام لا يتسع للبحث عن الاجابة. ويشفع لنا ان الاجتباء في استعمالات القرآن كلّه يكون فاعله المولى عز وجل ويقع تأثيره على الانبياء والرسل وذرياتهم ، فلم تستعمل الافعال في المفعولية لغير ذلك من عامة الناس.

المبحث الثاني

مراتب دلالة الاصطفاء

ظهرت مفردة الاصطفاء في القرآن الكريم مسندة الى فاعل واحد وهو المولى ﷻ، ولكنها تعدت في استعمالات التركيب القرآني الى مفاعيل عدة ، يمكن ان تكون بحسب الترتيب المقامي لأصحابها المصطفين.

ولا نشك ان هناك مقصداً يريد القرآن ان يحقّقه في جعل صفة الاصطفاء لمجموعة من خلقه ،او ان الاصطفاء مقصود لمن يريد المولى ان يجعله مصلحا ليصلح الأمم ؛ وهذا بذاته مقصد مهم من مقاصد الخطاب القرآني التي نحن بحاجة لتحديدها لكي نحصل على دلالة المفردة المستعملة((فإن لتحديد مقاصد الخطابات القرآنية الدور المؤثر في تخصيب بيئة المعنى وإثراء عملية الفهم، وتحديد نبض الخطابات القرآنية، وتالياً التفسير الدقيق للمفاهيم القرآنية))٣٠. وهو ما يلزمنا ان نتتبع الاصطفاء الإلهي لآدم في قوله:﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(ال عمران/ ٣٣). فالسياق هنا بعيد عن التوبة والهداية اللتين تحقّقتا في مرحلة الاجتباء، وان الاصطفاء مقام آخر قُرن مع مقام الانبياء،(آدم ، ونوح، وذرية عمران، و ذرية إبراهيم).

والفعل (اصطفى) هنا سلط على عدة مفاعيل جمعها حرف الواو مع المفعول الأول الذي تعدى اليه بصورة مباشرة، وظهر الترتيب في دلالة الواو؛ لأن الظهور

الرتبي كان على اساس تاريخي. وهو ما سوغ لأحد المفسرين أن يقول: ((ومهما يكن، فقد ابتدأ اللّه سبحانه بذكر آدم، لأنه أبو البشر الأول، وثنى بنوح، وهو أبو البشر الثاني، لأن جميع سكان الأرض من نسله وحده، ... واصطفى اللّه كلّا من آدم ونوح بشخصه، ولذا لم يقترن اسمهما بآل، أما إبراهيم وعمران فقد اصطفاهما مع الآل. . وكما ان آدم ونوحا هما أبوا البشر، فان إبراهيم أبو الأنبياء جميعا بعد نوح ، حيث لا نبي منذ إبراهيم إلا من نسله))٣١. وهذا الكلّام أيده اسلوب الآية في عرض التسلسل التاريخي في عملية الاصطفاء .

اما صاحب الميزان فإنه وان لم يبعد التسلسل التاريخي؛ الا انه نظر من جهة اخرى لهذا الاصطفاء بقوله: ((وقد ذكر سبحانه في هؤلاء المصطفين آدم ونوحاً، فأما آدم فقد أُصطفي على العالمين بأنه أول خليفة من هذا النوع الانساني جعله الله في الأرض قال تعالى(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)البقرة /٣٠ وأول من فتح به باب التوبة قال تعالى:(ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى)طه /١٢٢ وأول من شرع له الدين قال تعالى:(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى. . الآيات)طه /١٢٣ فهذه أمور لا يشاركه فيها غيره و يا لها من منقبة له عليه السلام))٣٢. وفي كلّامه هذا حاول ان يربط بين الاجتباء والاصطفاء والجعل، ويبيّن مرتبة كلّ منهما، فالاصطفاء مرتبته متأخرة عن الاجتباء من جهة التسلسل ومسافة القربّ من الجعل الإلهي؛ لذلك قد يكون الراغب محقّاً في قوله ان الاجتباء هو:((الجمع على طريق الاصطفاء))٣٣، فعندها يمكن معرفة الفرق بين المصطلحين في الاستعمال القرآني ،فالاجتباء واقع في طريق الاصطفاء، فهو ليس منه؛ بل هو مرتبة متقدمة عليه؛ لذا فالاصطفاء يلازم اختيار آدم للنبوة، وكان قد تجاوز مرتبة الاجتباء والتوبة والهداية. نعم، هو في علم الله تعالى مصطفى قبل هذه الأمور لكن المولىﷻيربّط الاسباب بمسبباتها. فالاصطفاء مرتبة اخرى.

وكذلك أكد القرآن الكريم في اسلوبه وذكره لمراحل زمنية متعددة،أن هذا الاصطفاء ليس أمراً واقفاً على جهة او شخص بعينه، بل يعني حركة وسنة تاريخية ممتدة في اعماق التاريخ ، يمكن أن نسميها حركة الاصطفاء، فيها من الحث على

التدبر في دلالات الاصطفاء في عمق حركة الزمن واستشراف ما تفرزه دلالة آل إبراهيم في نبوة نبينا محمد (ص)؛ لأنه من آل إبراهيم، وكذلك قد تكون حركة في الأسرة أو في الجماعة والأمة.

والاصطفاء هنا ليس لكلّ آل إبراهيم بل لبعضهم؛ لأنّ معنى (الآل) يطلق على من يختص بالإنسان من أهله وقرابته، فإنّ القدر المسلَّم به لهذا المفهوم، هو أهل بيت الرجل، وقد يوسّع بالقرائن فيطلق على ذوي قرابته على انّهم من أهل بيته ، ثمّ يوسّع فيطلق على مطلق الأتباع له، فالتوسعة تحتاج الى قرينة٣٤. ولما عطفت الآية آل عمران على آل إبراهيم، وآل عمران لا ريب انهم بعض ذرّية إبراهيم، فعطف الجزء على الكلّ وتخصيصهم بالذكر؛ يدلّ على أنّ المراد بعض ذرّية إبراهيم عليه السلام لا كلّ ذرّيته.

أولاً: الاصطفاء بين النبوة والرسالة:

من الملاحظ ان اصطفاء إبراهيم في الآية السابقة كان مقروناً بلفظة الآل وبقوله:(على العالمين)، فلم يكن اصطفاء مباشراً، ولكن نجد في آية اخرى كان الاصطفاء له مباشراً ومخصوصاً به ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(البقرة/ ١٣٠)، والدليل هو وجود ضمير الغائب المفرد، وفيه دلالة واضحة تبيّن معالم الاصطفاء للنبوة،فهو اصطفاء للملة، وهي ملة الاسلام كما يتضح من الآيات التي بعدها﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة/١٣١-١٣٢)، لقد كانت طهارة إبراهيم وبراءته مقدمه لإسلامه، وكمال اسلامه مقدمه لاصطفائه، فهو لما اسلم صار أهلا للاصطفاء، والاصطفاء مبالغة في الاستخلاص ودقه الاختيار، لينتقل اصطفاء ابراهيم الى رتبة أخرى هي اصطفاء الدين وهو دين الاسلام، فاصطفاه اللّه للناس إماما لما طهر وبرئ وسلم وتمت فيه الكلمات، وكلها مراتب واقعة بين الاجتباء والاصطفاء، لأن الابتلاء بالكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام وكانت سبباً لقبول توبته هي التي جعلت من ابراهيم اماما﴿وَإِذِ ابْتَلَى

﴿إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/ ١٢٤)، فالكلمات التي ابتلى بها إبراهيم إنما هي مراتب الاسلام، أو هي الاسلام في حقيقته الكاملة وتحققه التام، وقد سألها إبراهيم ربه في دعائه في الآيات التي سبقت فطلب الاسلام مع التوبة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة/ ١٢٨)، اسلاما بهذا المضمون في شطرين، الأول له ولولده، والثاني لذريته، وقد استجاب له اللّه في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾(الزخرف/٢٨)، فالإسلام كان طريقاً لمنصب الامامة ،الذي جعلها الله تعالى بعد الابتلاء بالكلمات التي كانت سببا للجعل الالهي الذي يعد رتبة من مراتب الاصطفاء.

فهو إذن اصطفاء للرسالة الرئيسة وهي رسالة الاسلام، ثم الامامة .يختلف في مستواه الدلالي عن الاصطفاء السابق ،وهذا ما اوضحه صاحب الميزان عند كلّامه عن التفريق بين اصطفائي مريم إذ يرى: ((أن الاصطفاء المتعدي بعلى يفيد معنى التقدم، وأنه غير الاصطفاء المطلق الذي يفيد التسليم))٣٥؛ في حين لم يقرن الاجتباء بمقام النبوة كما بينا سابقاً، بل كان فيه هداية فردية وتهذيب للذات﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(النحل/١٢٠-١٢١)، فالقنوت والحنف والشكر والتوحيد ؛كلّها اهداف شخصية للتهذيب الذاتي كان من نتيجتها الاجتباء والهداية. وهو بلا شك يكون مرحلة متقدمة قبل الاصطفاء الذى هو من مقتضيات الرسالة والرسول.

ويمكن ايضاً ان نجد العلاقة الدلالية بين الاصطفاء والرسالة في قوله تعالى:﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(الحج/ ٧٥)وجاء الاصطفاء هنا بصيغة فعل المضارع وقد عدّي الى مقام الرسالة بلا واسطة، وشمل جنسين من المخلوقات، هما: الملائكة والناس، وفي زمن المضارع من الدلالة على استمرارية الاصطفاء في العلم الإلهي، فاصطفاء المرسلين حدثٌ مستمر لحاجة البشرية لذلك، ومن الطبيعي أن تكون الوظائف الربّانية في الرسالات الإلهية اصطفاء ربّانياً، لا شأناً بشرياً ينتدب

له الناس بعضهم بعضاً، فالنص أخبرنا عن هذه الحقّيقة بصيغة المضارع، وهي حقّيقة كائنة فإن الله يصطفيهم لعلمه بقابلياتهم وبشأنهم، بالمقاييس الربّانية لا بالمنظور البشري، والله وحده يعلم حقّائق الأمور وبواطنها، في حين يكون للبشر الظاهر، فالصفوة هم الذين لا يضاهون فيما بلغوه في كلّ بعد من الأبعاد الضرورية لحمل الرسالة ومسؤولياتها، تبعاً لما تتطلبه حاجة هذه الوظيفة في مراحل الرسالة المتعددة، فهؤلاء لا يعلم حقّائقهم إلا الخالقﷻ.٣٦وسياق التركيب في تقديم الفاعل وهو اسم الجلالة على الخبر الفعلي في قوله (الله يصطفي) دون أن يقول: نصطفي، فيه نكتة بلاغية لا تخفى على المتدبر؛ وهي إفادة الاختصاص، أي الله وحده هو الذي يصطفي لا أنتم تصطفون وتنسبون إليه. و كذا الإظهار في مقام الإضمار هنا حيث لم يقل: هو يصطفي من الملائكة رسلاً، لأن اسم الجلالة أصله الإله، أي الإله المعروف الذي لا إله غيره، فاشتقاقه مشير الى أن مسماه جامع كلّ الصفات العلى تقريراً للقوّة الكاملة والعزّة القاهرة.٣٧

وهناك شبه اجماع من المفسرين في أن معنى(يصطفي) هنا بمعنى:(يختار)، ولا أظن ان الكلمة بحاجة الى بيان معجمي لكونها واضحة الدلالة. والشيء الاخر الذي سلطوا عليه الضوء هو دلالة (من)على التبعيض، فتكاد هذه العبارة تتكرر عند جميع المفسرين على اختلاف مذاهبهم ((أي يختار منهم من يصلح للرسالة "ومن الناس" أي ويختار من الناس أيضا مثل ذلك. وفى ذلك دلالة على إنه ليس جميع الملائكة رسلا، لأن (من) للتبعيض عند أهل اللغة، وكما أن الناس ليس جميعهم أنبياء فكذلك الملائكة))٣٨. والذي يريد البحث ان يفيد منه هنا أن الاصطفاء في بعض معانيه اكثر شمولاً من الاجتباء، إذ أنه أدخل في دائرته اصطفاء الملائكة، وهو ما لم يكن في الاجتباء، ويتضح الفرق الدلالي هنا بان مرتبة الملائكة في وجودهم مختلفة عن البشر، فهم يمكن أن يصطفوا ويتفاوتوا بالاصطفاء بدلالة (من) التبعيضية وكذلك الناس، ولكن الاجتباء الذي هو لغة(الجمع بعد تفرق) لا يتفق مع مقام الملائكة الثابت تقريباً؛ اما مقام البشر فهو متحرك من الادنى الى الاعلى او بالعكس

وذلك بسبب التكوين الخلقي واختلاف الجنس، فيمكن أن يترقى مقام البشرية ويصل الى أعلى رتبة من الملائكة، ويمكن ان يتسافل الى درجة اقل من الحيوانية٣٩.

وهذه المعاني يمكن أن نتصّيدها في التحليل اللغوي لمفردة (اصطفى)،فالطاء فيها هيتاء الافتعال، في الصيغة الصرفية، فالأصل هو الصفاء والصفاء: هو الخلوص عن الكدورة. والاصطفاء هو جعل الشيء صافياً وهكذا التصفية، إلَّا انّ النظر في التصفية الى جهة الوقوع، وفي الاصطفاء الى جهة الصدور والقيام بالفاعل. والاصطفاء هو الرغبة الى جعل شيء واختياره صافياً، فانّ الافتعال يدلّ على القصد والاختيار.٤٠فوجود الطاء اقتضى شيئاً من عناية الفاعل بالمفعول، في مثل اختار اي اختاره صافياً من الخليط والاختلاط. فقد يكون الصفاء من حيث الاندماج والاختلاط بغيره والمساواة له، فيُصطفى بالرسالة، كقوله تعالى في شأن موسى:﴿إِنِي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وبِكَلّامِي﴾(الأعراف/ ١٤١)، او اصطفاؤه للملك ونصرة الدين، كما في شأن طالوت ﴿إِنَّ اللَّه اصْطَفاه عَلَيْكُمْ﴾(البقرة/٢٤٨)٤١، ونستوحي هنا ان وجود الطاء فيه مبالغة في الفعل وهو نوع زيادة في المعنى انتجتها زيادة المبنى؛ فاصطفاء موسى عليه السلام تعدى بالحرف(على)وفيه شيء من المفاعلة وتعني هنا: تقديمه على غيره باصطفائه للنبوة والرسالة على سائر الناس، ومثله اصطفاء طالوت بدلالة التعدي بحرف الجر(على).

وهناك وجوه اخرى من التحليل يتبناها بعض المفسرين فيما يخص اصطفاء موسى عليه السلام، فذهب الطبرسي الى القول: ((وفضلتك على الناس (برسالاتي) من غير كلّام (وبكلّامي) من غير رسالة، وخصّ الناس لأنه كلّم الملائكة، ولم يكلّم أحدا من الناس بلا واسطة، سوى موسى عليه السلام))٤٢، وهذا النوع من التفاضل تساءل عنه احد المحدثين من المفسرين بما معناه، هل يستفاد من هذه الآية أن التكلّم مع الله كان من امتيازات موسى الخاصة به دون بقية الأنبياء، يعني اصطفيتك لمثل هذا الأمر من بين الأنبياء؟ وهو تساءل في محله، لكنه اجاب عن تساءله بقوله: ((الحقّ أن هذه الآية ليست بصدد إثبات مثل هذا الأمر، بل إن هدف الآية - بقرينة ذكر الرسالات

التي كانت لجميع الأنبياء - هو بيان امتيازين كبيرين لموسى على الناس: أحدهما تلقي رسالات الله وتحملها، والآخر التكلّم مع الله، وكلّا هذين الأمرين من شأنهما تقوية مقام قيادته بين أمته))٤٣. ولكن الرازي كان قد اجاب عن هذا الاصطفاء والتمييز بجواب آخر، إذ يرى ((إنه تعالى بيّن أنه خصه من دون الناس بمجموع الأمرين، وهو الرسالة مع الكلّام بغير واسطة، وهذا المجموع، ما حصل لغيره ، فثبت أنه إنما حصل التخصيص ههنا لأنه سمع ذلك الكلّام بغير واسطة، وإنما كان الكلّام بغير واسطة سبباً لمزيد الشرف بناء على العرف الظاهر؛ لأن من سمع كلّام الملك العظيم من فلق فيه كان أعلى حالاً وأشرف مرتبة ممن سمعه بواسطة الحجاب والنواب))٤٤. وهذا الكلام وإن جاز لنا ان نعترض عليه بأن مقام الرسول محمد ﷺ أعلى من جميع مقامات الانبياء وهو معلمهم، الا ان يكون ذلك اختصاصاً لموسى في زمانه، لكن المهم ان هذا الكلام ينفعنا في أن التشريف وعلو الرتبة هو (اصطفاء)، وهو لاشك مرتبة متأخرة عن الاجتباء، ومتقدمة في القربّالى المولى ﷻ. وهو ما يمكن ان نستظهره من مراتب العناية باصطفاء موسى عليه السلام فهو قد وضع في مراتب اشار لها القرآن بمصطلحات أخرى وهي الاصطناع والاختيار، فحريٌّ بنا ان نبحث العلاقة الدلالية بينهما والاصطفاء.

ثانياً: الاصطفاء والاصطناع :

ذهب اكثر المفسرين في فهمهم لقوله تعالى:﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه/ ٤١)الى أن الاصطناع هنا بمعنى الاصطفاء او الاختيار، فاصطنعتك تعني:((اخترتك واصطفيتك واختصصتك بالرسالة أو النبوّة))٤٥.وهذا الاصرار من المفسرين على تساوي الدلالة بين هذه المفردات لم يكن له مبرر سياقي ولغوي واضح، فلم يجهد احدهم نفسه لبيان التفريق بين مقامي السياق الاستعمالي للمفردتين، وقد علمنا فيما مضى، ان الاصطفاء استعمله النص القرآني لموسى في ما يتعلق بالرسالة والكلّام، اما هنا فلا دليل لأن تكون (لنفسي) هي: الرسالة والكلّام، وان كان الشريف الرضي في مجاز القرآن ذهب الى توجيه المعنى الذي قرره المفسرون توجيهاً بلاغياً، بقوله: ((وهذه استعارة. والمراد بها: واصطنعتك لتبلغ رسالتي، وتنصرف على إرادتي

ومحبتي....))٤٦فإذا كان المراد هو التبليغ، فما المانع من استعمال الاصطفاء بدلاً من اصطنعتك؟؟ وقد اشار الى معنى اخر كأنه لم يقوه ((وقال بعضهم: معنى (لنفسي) هاهنا: أي لمحبّتي وإنما جاز أن يوقع النفس موقع المحبة؛ لأن المحبة أخص شيء بالنفس، فحسن أن تسمى بالنفس))٤٧. وهو ما ايده الطوسي في تبيانه ((ووجه قوله: (لنفسي) يعني محبتي، لأن المحبة لما كانت أخص شيء بالنفس حسن أن يجعل ما اختص بها مختصا بالنفس على هذا الوجه))٤٨، الا ان صاحب الميزان حاول ان يقرأ تلك الدلالات قراءة سياقية جديدة وذلك عن طريق العودة الى الأصل اللغوي للاصطناع ومحاولة ربّطه بالمعنى السياقي القرآني الذي استعملت فيه المفردة ،فالاصطِناع: افتِعالٌ من الصنِيعة وهي العَطِيّةُ والكرامة والإحسان٤٩، وفي ضوء ذلك يرى ((بالنظر الى السياق أن يكون الاصطناع مضمنا معنى الاخلاص، والمعنى على أي حال وجعلتك خالصا لنفسي فيما عندك من النعم فالجميع مني وإحساني ولا يشاركني فيك غيري فأنت لي مخلصاً وينطبق ذلك على قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾(مريم/٥١).))٥٠؛ لذا ذهب الى الاعتراض على ما قرره المفسرون بقوله: ((ومن هنا يظهر أن قول بعضهم: المراد بالاصطناع الاختيار، ومعنى اختياره لنفسه جعله حجة بينه وبين خلقه ،كلامه كلّامه، ودعوته دعوته، وكذا قول بعضهم إن المراد بقوله: " لنفسي لوحيي ورسالتي ، وقول آخرين: لمحبتي، كذلك من قبيل التقييد من غير مقيد.))٥١، ومن ثَمّ يصلالى دلالة تجعلنا نطمئن الى ان السياق الذي اعتمده له نتيجة مرضية، توصلنا الى أن الاصطناع مرحلة سابقة الاصطفاء بقوله: ((ويظهر أيضاً أن اصطناعه لنفسه منظوم في سلك المنن المذكورة، بل هو أعظم النعم ، ومن الممكن أن يكون معطوفا على قوله: (جئت على قدر) عطف تفسير...فالأولى جعله تمهيداً لإرساله الى فرعون مع شركة من أخيه في أمره))٥٢؛ فالصناعة لموسى لاريب انها سابقة الاصطفاء للرسالة والكلّام .وهو ما سنبينه لاحقاً.

ثالثاً: الاصطفاء والاختيار:

وهذا الكلام نفسه نجده في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾(طه/١٣)، فقد

ذهب اكثر المفسرين الى أن (اخترتك)هنا بمعنى (اصطفيتك)٥٣.و لم ينثن عن دلالة الاصطفاء الا قليل منهم، فابن عربّي مثلاً اشار الى معنى جديد وهو ان اخترتك هنا تعني: ((وعد بالاصطفاء))٥٤، فهو ليس اصطفاءً مباشراً وانما وعد، وفيه اختبار، بدلالة الأمر الموجود، وهو ما اتاح لبعض المحدَثين من ذكر دلالة اخرى يحملها السياق، وهي ان الاختيار هنا فيه مفاجأة لموسى، وفيه نوع من طلب التلقي بصيغة الأمر(فاستمع)،فيذهب صاحب التحرير والتنوير الى ان الدلالة فيها إخبار((عن اختيار الله تعالى موسى بطريق المسند الفعلي المفيد تقوية الحكم؛ لأن المقام ليس مقام إفادة التخصيص، أي الحصر نحو: أنا سعيت في حاجتك، وهو يعطي الجزيل. وموجب التقوية هو غرابة الخبر ومفاجأته به دفعا لتطرق الشك في نفسه. والاختيار: تكلّف طلب ما هو خير. واستعملت صيغة التكلّف في معنى إجادة طلب الخير))٥٥، فنجد ان ابن عاشور حاول ان يفيد من سياق المقام، وقوة الخبر ومفاجأة الاسلوب، ليكتشف دلالة أخرى للاختيار، فهو عنده تكلّف في طلب الخير. ومع غض النظر عن قبول هذه الدلالة او عدم قبولها، فهي استنتاج سياقي مهم افاده التركيب المحكم للنص. اعطى نتيجة متفرعة عن الاختيار وهي طلب الاستماع للوحي؛ لأن هذا الاستماع لا يحدث الا بعد ان يتمّ الاختيار بالإرادة الإلهية، مما اعطى دلالة محتملة للّام في قوله تعالى: (فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) فهي تقوّي تعدية الفعل (استمعْ)الى مفعوله، فيجوز أن تتعلق بـ (اخترتك)، أي اخترتك للوحي (فاستمع)، جملة معترضة بين الفعل والمتعلق به. ويجوز أن يُضمّن(استمع) معنى(أصغ)٥٦، ولاريب ان الاصغاء اشدّ وقعاً من الاستماع. وهذا نوع من القراءة السياقية فيه نتائج دلالية طيبة، أُعتمد فيها السياق الداخلي التركيبي.

وهذا النوع من التحليل نجده عند السيد الطباطبائي، وذلك حين افاد من السياق بوضوح تام ؛فيرى ان(اخترتك) هنا ((من قبيل إصدار الأمر بنبوته ورسالته، فهو إنشاء لا إخبار، ولو كان إخبارا لقيل: وقد اخترتك، لكنه إنشاء الاختيار للنبوة والرسالة بنفس هذه الكلمة ثم لما تحقّق الاختيار بإنشائه فرّع عليه الأمر بالاستماع للوحي المتضمن لنبوته ورسالته فقال:" فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى" والاستماع لما يوحى

الاصغاء إليه))٥٧، فلم يذكر ابن عاشور ولا السيد الطباطبائي ان الاختيار هنا بمعنى الاصطفاء؛ بل انه ظلّ اختيارا واقعاً في سياق الأمر لاستماع الوحي والاصغاء اليه ،وهو ما تصل نهايته الى النتيجة الحتمية للأصطفاء ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾(الاعراف/ ١٤١).

وقفة مقارنة

من هنا تفرض علينا طبيعة البحث ان نوازن بين الآيات الثلاث على وفق العلاقات السياقية لكلّ آية؛ لكي تتضح دلالاتها المقصودة من المبدع، فلا يجب ان نتجاوز القصدية التي من اجلها صنف الاعجاز النصي للقرآن، فلو كانت دلالات الاصطناع والاختيار متطابقة مع الاصطفاء – وهو ما اثبته أكثر المفسرين- فما المانع إذن من استعمال الاصطفاء بدلاً منهما؟ .

وانطلاقاً من إيماننا أن استعمال كلّ مفردة قرآنية في نسقها التركيبي هو قصد لدلالتها هي، ولو وضعت محلّها لفظة اخرى لما ادت الدلالة المقصودة، وهو ما لا يختلف عليه اثنان. فإن القرآن الكريم دقيق في اختيار الفاظه نظراً لوجود الفروق الدقيقة بين دلالتها، فكلّ لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى ،وكلّ كلّمة تبثّ للمتلقي دلالة جديدة لا تستطيع الوفاء بها كلمة أخرى، والبحث في ضوء العلاقات السياقية من الاسس المهمة في الكشف عن البناء النصي .ولو وضعنا المعاني التي ذكرها المفسرون للمفردات الثلاث:

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ـــــــــــــ اصطفيتك

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ـــــــــــــ اصطفيتك واخترتك

إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ ـــــــــــــ اخترتك

لكانت هذه الدلالات المحتملة والمتبادلة بين الاختيار والاصطناع والاصطفاء، وهو ما يشير الى القبول بترادفها وإمكانية استعمال احداها بدلاً من الآخرى. والملفت انهم لم يذكروا مفردة الاجتباء لأي من المفردات الثلاث، وقد مرّ بنا انهم ذكروا في معرض كلّامهم عن دلالة الاجتباء في آيات سابقة وجعلوها تساوي الاصطفاء والاختيار. والنظرة المعجمية تحتمّ على الباحث ان يذكر المعاني المترادفة

للمفردة عند ذكرها، وهو ما يصيبنا بخيبة الأمل عندما نرى ان مفردة الاصطفاء ذكرت لكلّ المعاني ،في حين غُيبت مفردة الاجتباء التي يفترض ان تكون مرادفة للاصطفاء بحسب متبنياتهم المعجمية. وقد لاحظ البحث أن اكثر المفسرين ينقل اللاحقّ منهم عن السابق من دون عناء بالبحث عن سياق الآيات المختلف الا ما ندر من القدماء خاصة، اما المحدَثون فقد كانوا اكثر جديّة في البحث عن دلالة المفردة في سياقها التركيبي. فحتى لو سلمنا بوجود الترادف المعجمي بين هذه المفردات، إلا انا لا نسلم بانها استعملت في النص القرآني بهذا التطابق والتبادل؛ إذ ((لا تشاكلّ لفظة أختها تماماً وان ظهر انهما متطابقان))٥٨، فلا تطابق دلالي بين المفردات(المترادفة) فضلاً عن التطابق السياقي والاستعمالي؛ ذلك لأن ((الترادف يحمل في طيّه اسرافاً وعبثاً؛ لأنه يجمع عدداً من الألفاظ على واحدٍ من المعاني))٥٩، من هنا تبرز خصوصية استعمال القرآن لمفرداته داخل التركيب في حوادث تبدو متشابهة، فهو ينأى عن استعمال الترادف؛ لأن ثمة دواعي دلالية خاصة وقصدية معجزة تحتم تفضيل مفردة على اخرى واستعمالها بعينها، وهو ما نحاول ابرازه في هذه المقارنة.

فقد لوحظ ان المقام الذي افرزه سياق الاصطناع هو مقام التربّية الجسدية والنفسية ،وهو واضح في الترتيب الذي نقرأه في قوله تعالى:﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ۞ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه/ ٤٠-٤١)، فهناتذكير بالمنن التي منّ الله تعالى بها على موسى(عليه السلام)، والإحسان الذي أحسنه اليه، فتبرز الترتيب الصناعي لموسى منذ ولادته حتى زواجه من بنت شعيب(عليه السلام)في مدين ،بدلالة الترتيب بحرف الفاء المتكرر، وبعدها تؤدي(ثُمّ) التراخي الزمني الذي جعل موسى(عليه السلام) في مكانة حظيت بالاهتمام الإلهي الى درجة المبالغة في الاصطناع التي حكاها حرف الطاء، ثم لام الملكية للذات المقدسة ،توحي بما آلت اليه صيغة (اصطنعتك) من دلالة ايحائية لموسى بمستوى ان يخاطبه الصانع بنعمة الصنع، فكأنه يقول له:((جعلتك موضع الصنيعة ومقر الإكمال والإحسان، وأخلصتك بالألطاف واخترتك لمحبتي))٦٠،وهذه الصناعة الفائقة العناية؛ لها هدف مهم، يتعلق بادعاء

فرعون المشاركة في الربّوبية؛ وحتى لا يتوّهم احدٌ أن موسى يدعو لجهة اخرى غير الجهة الالهية جاءه الخطاب: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۞ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۞ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(طه/ ٤٢- ٤٤)، فالمقصود هنا بيان الآيات والنعم التي اصطنعت موسى وجعلته في مرتبة القدرة على فضح طغيان فرعون، ومقابلة ذلك باللين واللطف، وفيها صورة رائعة لهدف السماء في الهداية برقة وتأنٍ، وإن جاء في صيغة الأمر الذي يوحي باللزوم.

اما آية الاختيار فسياقها جديد ومقامها مقام آخر؛ إذ تتضح فيها شدة الطلب وما فيه من((تنبيه لموسى على أن الموقف موقف الحضور ومقام المشافهة، وقد خلى به وخصه من نفسه بمزيد العناية))٦١، فكأن الاختيار هنا انساق لموقف المشافهة بين موسى المختار، وبين المنادي الذي طُوي ذكرُه تحت صيغة البناء للمفعول ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(طه / ١٢)؛ ليُهيئ موسى الى مفاجأة المخاطبة والاختيار؛ ولذا قال: إِنِّي أَنَا ربّكَ، ولم يقل أنا الله أو أنا ربّ العالمين، ثم الانتقال الى مرتبة جديدة وهي: الأمر بالاستماع للوحي الذي هو وحي المعرفة وليس وحي الرسالة، لذلك كان التعريف، وذُكر لفظ الجلالة، ولم تذكر الربّوبية، وطريقة العبادة والتعريف بالعاقبة، فنلاحظ هذا التسلسل السياقي المتجانس في بيان التعريف﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۞ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۞ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۞ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾(طه/ ١٣- ١٦). فيأتي التعريف مكثف بأقوى الضمائر وهي ضمائر المتكلم (أنا، والضمير المستتر في أخترتك، والياء، وانا مرتين ،ثم ياء المتكلم مرتين)في ايتين قصيرتين فقط. فيلاحظ هذا التفريق بين مقام الربّوبية الذي ينسجم مع(الاصطناع)، ومقام الالوهية الذي يبرم (الاختيار)، وهو ما التفت الى قريب منه صاحب الميزان بقوله: ((لم يلزم من قوله ثانياً: (إني أنا الله) تكرار، لأن الأول تخلية للمقام من الأغيار للقاء الوحي، والثاني من الوحي))٦٢، وهو تفريق مهم بين مقامين ورتبتين أُريد لموسى ان يوضع فيهما بالتعاقب. فكان بمنزلة التحضير لأمر أهم وهو الاصطفاء

للرسالة، وما يثبته سياق آيات الاصطفاء التي كان فيها ازدياد في طلب المعرفة من موسى عليه السلام بعد ان اطمأن انه مختار في وقت سابق لوقت الميقات الذي جاء اليه، وهو طالب للرؤية التي تُعد اعلى درجات القربّ من المولى ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ۞ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(الاعراف/١٤٣ - ١٤٤)، فخصوصية الاصطفاء الإلهي له دون غيره من الناس في زمانه هو؛ لحمله حقّيقة ما آتاه الله من التوراة، فهو الذي اُصطنع واُختير، فيمكن ان تدخل في مساحة الاجتباء الدلالية التي بيّنا انها سابقة للاصطفاء، ولم يذكرها احد من المفسرين، ثم بعدها(اُصطفي) في مراحل يكمّل بعضها بعضاً، وكأن وسام الرسالة تحقّق بمرحلة الاصطفاء. التي فيها خصوصية الارسال ما له وعليه من تبعات تحمّل الرسالة فـ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾الانعام/١٢٤، وهو ما يدفعنا الى مقام دلالي مهم من مقامات الاصطفاء، وهو مقام وراثة الكتاب.

رابعاً :الاصطفاء ووراثة الكتاب:

وهو من الرتب الدلالية المهمة التي يمكن ان نستكشفها مع دلالات الاصطفاء، فقد ذهب فيها المفسرون مذاهب تحتاج الى التوقف عندها بموضوعية شديدة الحذر، وذلك في قوله تعالى:﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۞ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾(فاطر/٣١- ٣٢)، فالطبري يقرّ بالاختلاف في فهمها بقوله: ((اختلف أهل التأويل في معنى الكتاب الذي ذكر الله في هذه الآية أنه أورثه الذين اصطفاهم من عباده، ومَن المصطفون من عباده، والظالم لنفسه))٦٣في حين يذهب الرازي الى اتفاقهم بقوله: ((اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن، وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلّهم منهم))٦٤،في حين يجعلها القرطبي من الامور المشكلة

بقوله:((هذه الآية مشكلّة))٦٥، ويبدو ان هذا الاشكال جاء من عدم وضوح الرؤية العقائدية، لأن ظاهرها يخالف ثابتاً من ثوابت الفكر العقدي وهو عصمة المصطفين، وهذا الثابت لم يكن وليد التراكمات العقدية فحسب؛ بل هو ما افرزته استعمالات النص القرآني، فلا تنسجم الدلالة الظاهرة للآيات مع ما قاربّناه من دلالات مفهوم الاصطفاء.

وفي الحقّيقة نحن امام رأيين للمفسرين افرزتهما توجهاتهما المذهبية ذكرهما الطبرسي بقوله: ((وقيل: هم أمة محمد ﷺ أورثهم الله كلّ كتاب أنزله، عن ابن عباس، وقيل: هم علماء أمة محمد ﷺ لما ورد في الحديث: "العلماء ورثة الأنبياء". والمروي عن الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالا: "هي لنا خاصة، وإيانا عنى".))٦٦، فان الشيخ الطبرسي إذن اختصر علينا مقالات المفسرين بقوله السابق، ونحن في سياق بحثنا تعرّفنا على بعض دلالات الاصطفاء، فالمقاربّة تقتضي منا ان نعرف حقّيقة الارث الكتابي بتحليل مفرداته ؛ لنصل الى القيمة الدلالية المفترضة من وراثة الكتاب لكي نتمكن من تأكيد صحة نسبتها الى ما ادعاه اصحاب القراءات السابقة لهذا النص.

الوراثة المقصودة هنا ليست الوراثة المادية لاريب في ذلك، بل ان الوراثة من سنخ العلم اللدني الذي تكلّمنا عنه في مبحث الاجتباء، والدليل على ما نقول هو وجود الاصطفاء الذي يُعد من خصوصيات الأنبياء والرسل والملائكة، وكذا ينفعنا في المقام وجود كلّمة (عبادنا) في سياق التركيب ؛إذ تشير الى مقام العبودية التي تمثل ارقى درجات القربّ من المعبود، وهو ما عبرت عنه آيات الخضر مع موسى﴿عليه السلام فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾(الكهف/ ٦٥) وهؤلاء العباد هم انفسهم من يستحقّون السلام في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾(النمل/ ٥٩)، فهنا عباد مصطفون، فالعبودية مرتبة من المراتب التي تؤهل العبد المصطفى الى ان يعطى العلم اللدني، ولأنه عبد مصطفى يعطى الكتاب والنبوة التي هي من مرافقات الاصطفاء كما في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ

اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾(مريم/ ٣٠)، فيلاحظ هذه الملازمة بين العبودية واتيان العلم واتيان الكتاب، فالعبودية الحقّة لله موطن افتخار يعرف بها عيسى نفسه للناس ، ثم يردفها باتيان الكتاب والنبوة. وكذا لأنه عبد مصطفى يعطى وراثة الكتاب؛ وهو ما يحفزنا ان نتعرف على هوية هذا الكتاب.

فقد ذهب اكثر المفسرين الى ان الكتاب هنا هو القرآن٦٧، ولكن في الحقّيقة ان القرآن وان كان من معانيه الكتاب، الا اننا نميل الى الاحتمال الذي ذكره الرازي بقوله: ((ويحتمل أن يقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾(فاطر/٢٥)))٦٨، وهو ايضا ما نقله الطبرسي عن الجبائي٦٩، والذي يشفع لنا هنا ايضا استعمالات القرآن نفسه لمفردة الكتاب، ولاسيما فيما ينفع الوارث من وراثته كما في القصة التي يحكيها القرآن عن سليمان عليه السلام حين طلب من جلسائه جلب عرش بلقيس من اليمن وهو في بيت المقدس ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(النمل / ٤٠)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾(الرعد/ ٤٣)، فالعلم بالكتاب او العلم ببعض الكتاب، له القدرة على خرق القوانين التكوينية، والنواميس الطبيعية، واحضار العرش من اليمن الى بيت المقدس، والذي يستحقّ ان يكون شاهداً بين الرسول وبين قومه، هو من يستحقّ الوراثة الحقّيقة.وفي الآيات السابقة لا ينطبق معنى الكتاب على خصوص القرآن. نعم، ربّما يستعين بعضهم بسياق الآية التي تشير الى الوحي ولم تشر الى التنزيل الذي هو من ملازمات القرآن ،اما (اوحينا) فهي اعم من التنزيل، فلا يكون السياق هنا ملزماً لحصر دلالة الكتاب بالقرآن، ومن خلال المتابعة نجد أن مفردة (الكتاب) استعملت فيما هو أعم من القرآن، ولعل التفريق الذي أجراه احد الباحثين ينفعنا فيما نذهب اليه، والذي انتهى فيه الى ان للكتاب من حيث نصانيته وفحواه ، جانبان: ((جانب إمكان المعنى واطلاقه، وهو جانب القرآن، وجانب تحقّيق ذلك الإمكان واقعاً وهو جانب الفرقان. ويبقى الجانب الأول مرتبطاً بالثاني ومتعلقاً به وساعياً اليه بغية تصيير صفة

الإقراء والاقتران صفة تفرق، اي بغية إجراء(الميتا)/ السماوي إجراء ارضياً / واقعياً))٧٠.وهذا المفهوم الذي استنتجه الباحث هو مفهوم النص الكتابي. أما حقّيقة الكتاب الماورائية/الميتافيزيقية، فهي التي تستطيع ان تحرك عرش بلقيس بطرفة عين، وهي التي تستحقّ الوراثة، حتى الحقّيقة القرآنية النصية للكتاب؛ تختلف عن حقّيقته الميتافيزيقة بلسان النص نفسه على سبيل الفرضية، نجد ان القرآن له القدرة على تحريك الجبال وتكلّيم الموتى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا...﴾(الرعد/ ٣١). أما في الجانب الفرقاني﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۞وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾(الانبياء٤٨- ٥٠). فالهداية والضياء والايمان بالغيب، كلّها امور فرقانية، وبمعية القرآنية يتحقّق علم الكتاب الذي يورّث لمن يستحقّ الوراثة، وهم المصطفون والمهتدون. وحينها لا يمكن بحال من الاحوال أن تكون هذه الوراثة للأمة بأجمعها؛ بل هي وراثة الخواص التي قال عنها الامام الرضا عليه السلام: ((أما علمتم أنه وقعت الوراثة والطهارة على المصطفين المهتدين دون سائرهم؟ قالوا: ومن أين يا أبا الحسن؟ قال من قول الله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وإبراهيم وجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ والْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾(الحديد/ ٢٦)، فصارت وراثة النبوة والكتاب للمهتدين دون الفاسقين، أما علمتم أن نوحاً عليه السلام حين سأل ربّه فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقّ وأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ ﴾(هود/ ٤٥)، وذلك أن الله عز وجل وعده أن ينجيه وأهله فقال له ربّه: ﴿يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾(هود/ ٤٦)))٧١. فيكون ملخص الدلالة اشارة الى الوراثة التكوينية لحقّيقة الكتاب بوجوده الوحياني(القرآني والفرقاني) في عالم الوحي لا الكتاب بوجوده المنقوش في المصحف، فيكون تخصيص الوراثة بالمصطفَين من العباد لا كلّ العباد، فإنّ الاصطفاء هو الوراثة اللدنية التي يتأهّل بها المصطفون من العباد للإلهام الإلهي الأعمّ من الوحي النبويّ وغيره.٧٢

وهو ما يضع علامات استفهام حول ذيل الآية التي تشير الى التفصيل﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾(فاطر/ ٣٢)، هل ينسجم هذا التذييل مع وراثة الكتاب ومع الاصطفاء؟ ثم الآية التالية تشير الى ان هؤلاء يدخلون الجنة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(فاطر/٣٣)؛ لذا وقع المفسرون في اختلاف كبير في توجيه هذه الآية، وهو ما يجعلنا هنا في مقام الترجيح، فهل نستطيع الفصل بين المصطفين وبين العباد؟فهل التقسيم الاخير هو للعباد من دون المصطفين كما ذهب الرازي؟؟ إذ يرى ان الضمير في قوله:(فمنهم) عائد الى قوله: (من عبادنا) لا الى قوله:(الذين اصطفينا)؛لأن عود الضمير الى أقربّ المذكورين واجب كما يقول٧٣. والحقّيقة إن هذا الرأي تولّد عن مفهوم دلالة الاصطفاء، فلا تنسجم هذه الصفات حسب ظاهرها مع المصطفين؛ لتعارضه مع الدلالة اللغوية للاصطفاء، ولنشوزه الذي عُهد في سياق استعماله القرآني، وهكذا فقد صنف الله تعالى العباد ثلاثة أصناف: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات،فظاهر النص ميّز المصطفين عن أهل الظلم والضلال وأهل السيئات والمعصية، فيكون فيه إشعار بتنزههم عن المعاصي والضلال، الأمر الذي يتوافق مع دلالة الاصطفاء لغوياً ومضمونها القرآني، في اختيار الله تعالى للصفوة من خلقه، الذين بارك فيهم وحمّلهم وظائف رسالته العظيمة التي لا يقوى على حملها إلا مثل هؤلاء.٧٤

وهناك توجيه آخر يذكره الحسكاني بسنده في شواهد التنزيل ،عن أبي حمزة الثمالي عن الامام علي بن الحسين عليه السلام، قال:((إني لجالس عنده إذ جاءه رجلان من أهل العراق فقالا: يا ابن رسول الله جئناك كي تخبرنا عن آيات من القرآن. فقال: وماهي؟ قالا: قول الله تعالى:﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾(فاطر/٣٢)،فقال: يا أهل العراق وأيش٧٥يقولون؟قالا: يقولون: إنها نزلت في أمة محمد صلى الله عليه وآله فقال لهم علي بن الحسين: أمة محمد كلّهم إذا في الجنة!! قال: فقلت من بين القوم: يا ابن رسول الله في من نزلت؟ فقال: نزلت والله فينا أهل البيت -ثلاث

مرات -قلت: أخبرنا من فيكم الظالم لنفسه؟ قال: الذي استوت حسناته وسيئاته- وهو في الجنة - فقلت: والمقتصد؟ قال: العابد لله في بيته حتى يأتيه اليقين. فقلت: السابق بالخيرات؟ قال: من شهر سيفه ودعا الى سبيل ربّه))٧٦.وهي توجيهات مقبولة إذا ما قورنت بالتوجيهات التي ذكرها المفسرون، وفيها افادة من السياق الذي ذُكرت فيه الآية، وهو دخول ورثة الكتاب الى الجنة، وتنسجم مع مقام المصطفين الذي استحقّوا وراثة الكتاب. بل أن خصوصية الاصطفاء الإلهي لهم من دون غيرهم هي لحملهم حقّيقة هذا الكتاب، وتبّين أنّ لديهم علم حقّيقة الكتاب بقسميه :القرآني من جهة الألفاظ وظواهرها، والفرقاني بدرجات معانيه غير المتناهية، وهذا التراث والوراثة التكوينية لا يشاركهم فيها غيرهم بأدنى مشاركة، و ليس لغيرهم مهما بلغت درجته من العلم سوى الوقوف على حدود المعاني الظاهرة، وبعض درجاتها التي توصّل إليها بواسطة الألفاظ.٧٧فهم الذين يستحقّون علم التأويل، ووراثة الكتاب بما فيه من علوم وما فيه من غيب﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(النمل/٧٥)؛ ليكون ما في الكتاب حاضراً عند المصطفين من الائمة ، لتتمّ المعادلة في قوله تعالى:﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾(يس/ ١٢)، فيكون الكتاب اماماً صامتاً، والامام كتاباً ناطقاً.

خامساً: الاصطفاء والتطهير:

ظهر مما تقدمإن الاصطفاء مقام من مقامات الارادة الإلهية، ومرتبة جعلية بالمعنى التكويني الذي لا يخرج عن مرتبة الجعل التشريعي، أي: أن علم الله تعالى متحقّق في اصطفاء قسم خاص من عباده، لعلمه بقدرتهم على تطبيق الشريعة، وقد يتعدى هذا الاصطفاء الى آخرين لضرورة تعلقت بهم كما في اصطفاء مريم وتطهيرها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾(العمران/٤٢)، فقد جاء الاصطفاء مكرراً بصيغة الفعل الماضي، وفاعله الله ﷻ، وكعادة النص القرآني في تقديم لفظ الجلالة على الفعل لغرض بلاغي معروف؛ لكي لا يذهب الذهن الانساني الى أن الاصطفاء يمكن أن يسند الى جهة أخرى،

وهذا مهم في بيان تلك الدلالة. والملفت ان الاصطفاء الأولكان مطلقاً، والثاني مقيداً بحرف الجر(على) وهو ما تكرر في آيات اخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدم وَنُوحًا وَآلَ إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(ال عمران :٣٣)؛ لذا نجد ان بعض المفسرين التفت الى هذا التفريق بين الاصطفاءين: فذهب احدهم الى ان ((اصطفاها مرتين، اما الأولى اصطفاها اي اختارها واما الثانية فإنها حملت من غير فحل فاصطفاها بذلك على نساء العالمين، اشار القرآن الى اصطفاء آدم عليه السلام في قوله:﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدم وَنُوحًا وَآلَ إِبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(ال عمران/ ٣٣)))٧٨، وذهب آخر الى أن الاصطفاء الأوله و اختيار ولكنه قُيّد بالاصطفاء الثاني؛ لأن ((الاصطفاء الأول اختيار منه، وعموم يدخل فيه صوالح من النساء، فأعاد الاصطفاء لتفضيلها على نساء العالمين))٧٩، ومنهم من حاول الافادة من وجود دلالة التطهير، وكأنه اراد ان يلمح الى دلالة جديدة للاصطفاء او الى علاقة بين التطهير والاصطفاء يُكسب الاخير مرتبة جديدة من الدلالة؛ لأنه جاء بعد التطهير .وهو ما نقله الطوسي عن أبي جعفر ((اصطفاها أولاً من ذرية الأنبياء وطهرها من السفاح))٨٠، وفيه اشارة الى أن العطف هنا على نية التفسير، اي ان الاصطفاء هو تطهير من جهة النسب، وهو ما نميل اليه هنا ؛لأن التطهير ضرورة من ضروريات العصمة للأولياء كما في قوله تعالى: ((إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا))(الاحزاب/ ٣٣)، والملازمة بين الاصطفاء والتطهير واقعة، فإذا كان الاصطفاء في اللغة هو: أخذ صفوة الشيء وتخليصه مما يكدره٨١، فهو ما فيه طهارة وتطهير واضحان، وفي عبارة الراغب((واصْطِفَاءُ اللَّه بعضَ عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صَافِياً عن الشّوب الموجود في غيره))٨٢وضوح في افادة هذا المعنى، فليس بعيداً ان يكون الاصطفاء هنا بمعنى التطهير بدليل العطف بين (اصطفاك وطهرك)؛ لذا جاء الاصطفاء الثاني بمرتبة اخرى استطاع صاحب الميزان ان يجد لها ملمحاً اسلوبياً في بيان الفرق بينهما بقوله: ((إن الاصطفاء المتعدي بـ(على) يفيد معنى التقدم، وأنه غير الاصطفاء المطلق الذي يفيد معنى التسليم، وعلى هذا فاصطفاؤها على نساء العالمين تقديم لها عليهن))٨٣.فنحن هنا أمام اصطفاءين، الاصطفاء الأول لم يقّيد

بكلّمة(على)،والاصطفاء الثاني تقيده كلّمة(على)، فيمكن أن يكون المقصود بالاصطفاء الأول: هو إبلاغ مريم أن الله ميزها بطهارة الإيمان، والصلاح والخلق الطيب، ولكن هذا الاصطفاء جاء مجردا عن(على)، أي أنه اصطفاء مطلق، لا يمنع أن يوجد معها في مجاله آخرون، ثم أورد الحقّ سبحانه أنه طهرها، وهو نوع خاص من الاصطفاء او مرتبة جديدة تفرق بينها وبين الآخرين، رجالاًونساء، وجاء من بعد ذلك بالاصطفاء الثاني المقيد بـ(على) فقال: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، فهنا قيد يخرج الرجال عن دائرة هذا الاصطفاء الذى ادخله الاصطفاء الأول، ولن يكون مجال الاصطفاء الثاني موضوعاً يتعلق بالرجولة؛ فهي مصطفاة على نساء العالمين، فكأنه لا توجد أنثى في العالمين تشاركها هذا الاصطفاء. لماذا؟ لأنها الوحيدة التي ستلد دون ذكر، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد من النساء.

وتفسير الاصطفاء الثاني بمعنى الاختيار لولادة عيسى(ع) ايضاً مما كرره غير واحد من المفسرين٨٤. ونحن نسلّم ان دلالة الاصطفاءين متباينة بما اقتضته دلالة العطف التي تُبنى على اساس المغايرة الدلالية بين المتعاطفين، لكن لا بما ذهب اليه الدكتور تمام حسان: على ان اصطفاك الأول بمعنى (اختارك) والثاني بمعنى (فضّلك) بدعوى الاتفاق في اللفظ من دون المعنى.٨٥ بل نرى انها مغايرة رتبيّة؛ بمعنى ان الاصطفاء الأول في مرتبة سابقة لمرتبة التطهير، وان كان هو من جنسه، وتليها مرتبة الاصطفاء الثاني، الذي لاشك انه اعلى رتبة من الاصطفاء الأول، ثم اصطفاء التطهير، فهذه كلّها مقدمات للاصطفاء الاخير الذي يميّز مريم عن الاخريات؛ لذا كانت عبارة (عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) فاصلة بين الدلالتين.

ولكن هل يمكن ان نقلب دلالة الاصطفاءين، فيكون الاصطفاء الأول هو لولادة عيسى عليه السلام، والثاني الاصطفاء بمعناه القرآني الشائع؟ وهذا ما ذهبت اليه احدى الباحثات إذ تقول: ((فما نعتقده هو العكس في المعنى، أي أن الاصطفاء الأول هو الذي أراد به سبحانه ولادة عيسى عليه السلام، وأن الاصطفاء الثاني معناه التفرغ للعبادة والانقطاع لله تعالى))٨٦، ودليلها هنا أن الاصطفاء الأول مسند الى الله تعالى مباشرة؛ لأنه ذُكرَ معه لفظ الجلالة، وان تقديم الاصطفاء المتعلق بولادة عيسى أوفق

لمدار الدلالة٨٧، وهذا التوجيه لا نوافقه؛ لأن العطف الموجود بين المفردات يوحّد النسبة الاسنادية الى فاعل الاصطفاءين وهو الله تعالى، وان ولادة عيسى عليه السلام لم تكن ارفع مقاماً من اصطفاء أمرأه في مجتمع يمنعها من أن تكون من العبّاد داخل المعبد، وهو ما حصل لمريم دون غيرها.

واصطفاء مريم لم يكن بمعنى تمييزها عن سائر النساء بمواهب وكفاءات تماثل فيها الرجال، وتفوق بها النساء؛ بل الاصطفاء هنا بمعنى آخر، فالسيّدة مريم لا تتميّز عن سائر النساء في سائر حالاتها وشؤونها الإنسانية، ولكنها بحسب إنسانيّتها وخلقتها الأصليّة قابلة لتولّي المهام في الحياة العامة كالرجل، فهي كاملة وليست ناقصة عن الرجال في الأعمال العامة إذا سنحت لها الفرصة والتربّية والتمرين على ذلك .فما ذكره المفسّرون أنّ المراد من الاصطفاء الأول في الآية: هو تفريغها للعبادة والخدمة في الهيكلّ ،هو الاقرب، فهو استثناء من الحظر المفروض على النساء في هذا الشأن ؛لأن العرف الديني خصه بالرجال آنذاك، وذلك استجابة لنذر أُمّها بتحرير حملها للعبادة، المحكي في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(ال عمران/٣٥)، وكانت النتيجة قبول النذر﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾(ال عمرا ن/ ٣٧)، وهذه كلّها مقدمات للاصطفاء الأول، الذي هو اصطفاء تكويني على وفق الشريعة الإلهية﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾(ال عمرا ن/٣٧)، ليأتي بعدها الاصطفاء الثاني: وهو اختيارها لولادة عيسى عليه السلام الإعجازية. فالاصطفاء الأول: هو استجابة لدعاء وقبول، وانبات حسن، وكفالة من نبي، وعونٌ على التقوى ،وهو تطهير معنوي، وكلّ ذلك لإعدادها لموضوع الاصطفاء الثاني، وهو الحمل الإعجازي . فيكون بين الاصطفاءين اختلاف رتبي لاغير.

وبهذا يختتم البحث مسيرته في محاولة الكشف عن بعض الرتب الدلالية التي استوحاها من سياقات النص الظاهر المحدود، عسى ان يتقبل منا الباري عزّ وجلّ ونحن نحاول فهم خطابه القرآني بدلالاته اللامتناهية، بتدبر على وفق إمكاناتنا البشرية المتناهية، فان اصبنا فمن عنده تعالى، وان اخطأنا فمن عند انفسنا والله غفور رحيم.

نتائج البحث:

يمكننا استخلاص النتائج التي اثبتها البحث بالنقاط الاتية:

١. لا علاقة دلالية وضعية بين الاجتباء والاصطفاء ،فأصولهما المعجمية مختلفة؛ لأن الاجتباء جمع عن تفرق، والاصطفاء اخراج من جمع ، وهذا التقابل الدلالي يوحي بعدم امكانية الحكم بالترادف ،اللهم الا في بعض الاستعمالات العرفية. وسببها كثرة استعمال احدهما مكان الآخر وغلبته.

٢. وجد البحث ان معاني الاجتباء معانٍ مشككة في تواجدها القرآني فهي تشتد وتقوى كلّما ازداد المقام وتقدمت الرتبة للمُجتبى في العلم الإلهي، فتراوحت مساحتها الدلالية بين التوبة والهداية والتلقي والتأويل.

٣. الاجتباء مجموعة مراتب، كلّمرتبة تشكلّ مرحلة اعداد لمسؤوليات يُهيأ لها المجتبى، وكذا الاصطفاء، فكلّاهما جعل الهي،وهما غير خارجين عن العلم والارادة الإلهين.

٤. ويثبت ان الاصطفاء إذا تأخر بعد هذه ؛ فان الاجتباءفي مرتبة دلالية سابقة عن مرتبة الاصطفاء فلا يمكن ان يكون معه بنفس الدلالة وهو ما يجعلنا نشك في ان يكون المصطلحان مترادفين خلافاً لما قاله غير واحد من اللغويين والمفسرين.

٥. الاصطفاء يمثل المرحلة النهائية التي تجعل من المصطفى في مقام التكلّيف بالرسالة والنبوة وهو متأخر في رتبة الجعل للخلافة الإلهية عن الاجتباء والاصطناع والاختيار. وانطلاقاً من هذه الكلّية السابقة؛ نستلهم معنى الاجتباء الإلهي بشكلّ لا يتعارض مع معاني القرآن وكلّياته.

٦. فالأنبياء والرسل والصالحون من عباد الله استحقّوا الثناء والتكريم والتشريف بما حملوه من أمانة التكلّيف وأداء حقّوق ما أعطاهم الله من مواهب واستعدادات. فاصطفاؤهم لاحقّ ومبنيٌ على القيام بحقّوق التكلّيف وعن استجابة الأنبياء للأمر وقيامهم بالواجب وبذلهم وتضحيتهم وإنابتهم وإخلاصهم وكبت دواعي الخلود الى الدنيا في بشريتهم . وهذا كلّه بعلم الله

وارادته التي لا تتخلف ولا تتأخر عن عصمتهم في كلّ وقت وزمان بقوة(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

٧. كما ان هناك استنتاجات ذكرت في مكانها من البحث يمكن الوقوف عليها بأدنى تأمل من القارئ الكريم.

ملخص البحث

حاول البحث الذي بين أيدينا ان يهتم في مفاهيم تشترك في ظاهرها بدلا لاتمت قاربة ؛إذ صنفها اللغويون ضمن شبكة المصطلحات المترادفة في القرآن الكريم وتابع مسيرة هذه المفاهيم في النص القرآني وما آلتإليه استعمالاتها المختلفة. وسلط البحث دراسته على مصطلحي: (الاجتباء والاصطفاء) وبيّن مراتبهما الدلالية في ضوء البنية السياقية .وحاول إبراز دلالات جديدة ينتجها السياق التركيبي المعجز في النص القرآني. وماتفرضه العلاقات السياقية من قوة تنظيم لعالم النص داخلياً وخارجياً ،فالمفردة لاينحصر سياقها في جمل بعينها؛ بلأن السياقات الأخرى تزيد من القدرة التأويلية لدى المتلقي مما يضمن سلامة الفهم وسعته. وتوصل الى نتائج مهمة ابرزها وجود مراتب دلالية تكاملية بين مصطلحي الاجتباء والاصطفاء.

Abstract

This paper attempts to be interested in concepts that are shared in their surface structures seemingly the similar significances, aslinguists classified them to be included in a net of synonymous terms in the holy Quran .Also it resumes the development of these concepts in the Qurans text and their different uses . This research focuses its study on the two terms of "piclcin out andselecting" imposed by the contextual relationships to the world of text from the inside and the outside. So the word does not restrict itscontexts in certain sentences ,butrather the other contexts would increase the interpretation capacity on the part of the receiver; in which this will guarantee the safety of grasping and its capacity .Finally, the research concludes important results ,one of which is the existence of the identical meaning levels between the two terms.

هوامش البحث

١التبيان في تفسير القرآن ٢: ٤٤٠
٢مجمع البيان في تفسير القرآن ٢: ٢٧٧
٣المصدر السابق ٢: ٢٧٨
٤اضواء البيان للشنقيطي ٤ : ١١٩ وينظر التفسيرالوسيط ٢: ٣٥٠
٥ينظرالتبيان ٧: ١٦٥ وينظر الكشف والبيان للثعلبي ٦ : ٢٤٠ وظ : تفسيرالسمعاني ٣: ٣٢٣
٦مفردات القرآن ١٨٦، وظ: لسان العرب ١٤: ١٢٨
٧ظ: التحقّيق في كلّمات القرآن ٢ : ٥٣
٨الميزان في تفسير القرآن ١٤ : ٢٢٣
٩ظ: تفسير جوامع الجامع ١ :٩٧. وظ :تفسير الرازي ٣: ١٩
١٠ظ: مجمع البيان ١: ١٧٢و ظ البرهان في تفسير القرآن ٣ :٢٧٠
١١ظ: الاء الرحمن في تفسير القرآن ١: ٨٧
١٢ الكشف والبيان (تفسير الثعلبي) ١: ٢٢٣
١٣المصدر السابق
١٤قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الاعراف / ٢٠-٢٣)
١٥(قالبإفادتهاالترتيبقطربّوالربّعيوالفراءوثعلبوأبوعمروالزاهدوهشاموالشافعي) ظ: مغنياللبيب٢: ٣٥٤
١٦تنزيه الانبياء٣٩ ،وظالت بيان في علوم القرآن ٤: ١٨٣
١٧الامثل في تفسير الكتاب المنزل ٤ : ٣٥٣
١٨ تفسير القمي ١: ٢٠٨
١٩المفردات: ١٨٦
٢٠الميزان في تفسير الميزان ٧: ٢٤٧
٢١ ظ زاد المسير في علم التفسير ٤: ١٣٩ظ : التحقّيق في مفردات القرآن ٢: ٥٢
٢٢ظ: جامع البيان ١٢: ٢٠٠ وظ: التبيان في تفسير القرآن ٦: ٩٨ ومجمع البيان ٥: ٣٦٠،
٢٣الميزان في تفسيرالقرآن١١: ٧٩
٢٤ظ: المعنى والتأويل في النص القرآني،: ٨٥ وظ: التأويل وتفسير النص مقاربّة في الاشكالية مجلة المصباح .ع: ٣ ص :٧

٢٥المعنى القرآن يبين التفسير والتأويل .: ٩٧
٢٦ظ :المصدر السابق : ١٠٤
٢٧ ظ الخط ابو التأويل: ١١٢
٢٨البحر المحيط ٣: ٥٢٥
٢٩ترتيب السور حسب النزول ٦ : ٧٩
٣٠اساسيات المنهج والخط اب في درس القرآن وتفسيره: ٢١١
٣١تفسير الكاشف ٢: ٤٨
٣٢الميزان في تفسير القرآن٣ : ١٦٥
٣٣مفردات الفاظ القرآن :١٨٦
٣٤ظ التحقّيق في كلّمات القرآن١: ١٧٨ .
٣٥الميزان ٣ : ١٨٩
٣٦ظ: الامامة تلك الحقّيقة الربّانية :٣٠٢
٣٧التحريروالتنوير١٨: ٣٤٤
٣٨التبيانفيتفسيرالقرآن٧: ٣٤٢. وظ تفسيرالثعلبي ٧: ٣٤ وظ: روح المعاني ١٧ : ٢٠٧وغيرهم
٣٩عن عبدالله بن سنان قال : سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت الملائكة أفضل أم بنو آدم ؟ فقال : قال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب " ع " : ان الله عزو جل ركب في الملائكة عقل ابل اشهوة ،و ركب في البه ائ مشهوة بلا عقل . وركب في بني آدم كلّيهما،فمن غلبع قله شهوته فهو خير من الملائكة ،ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم .علل الشرايع ١ :٤ -٥
٤٠ظ : التحقّيق في كلّمات القرآن ٦ :٢٥٨
٤١ظ: الاء الرحمن في تفسير القرآن١: ٢٧٦
٤٢مجمع البيان ٤ : ٣٥٤
٤٣الامثل في تفسير القرآن المنزل٥: ٢١٣
٤٤التفسير الكبير ١٤ : ٢٣٦
٤٥تفسير الثعلبي ٦ : ٢٤٥ وظالب غوي ٣: ٢١٨ وظالن سفي ٣: ٥٥وظالقرطبي ١١: ١٩٨،وظالت بي ان للطوسي ٧ : ١٧٥
٤٦تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٢٢٥
٤٧المصدر نفسه : ٢٢٥
٤٨التبيان في تفسير القرآن ٧: ١٧٥
٤٩ظ: لسان العربّ(صنع) ٨ : ٢٠٩

٥٠الميزان ١٤ : ١٥٣
٥١المصدر نفسه ١٤ : ١٥٣
٥٢الميزان : ١٤ ١٥٣
٥٣ظالت بيان للطوسي ٧ : ١٥٦ وظ: تفسير السمرقندي ٢: ٣٩١وظ: تفسيرالثعلبي٢: ٢٤٠
٥٤تفسير ابن عربّي ٢ : ١٧
٥٥التحرير والتنوير ١٧: ١٩٨
٥٦التحرير والتنوير ١٧ : ١٩٩.
٥٧الميزان١٤ : ١٣٩
٥٨تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)،: ٧٣
٥٩البيان في روائع القرآن ١: ٢٨٩
٦٠البحر المحيط ٦ :٢٢٨
٦١الميزان ١٤ : ١٣٩
٦٢المصدر السابق
٦٣جامع البيان ٢٢: ١٥٩
٦٤التفسير الكبير الرازي ٢٦: ٢٤
٦٥الجامع لأحكام القرآن ١٤ :٢٤٦
٦٦مجمع البيان في تفسيرالقرآن ٨: ٢٤٥
٦٧ظ: التفسير الكبير: ٢٤
٦٨المصدر نفسه ٢٦: ٢٤
٦٩ظ: مجمع البيان ٨: ٢٤٥
٧٠المعنى القرآن يبين التفسير والتأويل : ٢٢٣
٧١عيون اخبار الرضا ١: ٢٠٨
٧٢ظ: الامامة الإلهية ٢-٣ :٣٩٧
٧٣ظ : عصمة الانبياء : ١٢،
٧٤الامامة تلك الحقّيقة الربّانية :٣٠٢
٧٥هكذا وردت في النص ويبدو انها اختصار لـ(اي شيء) وهي لهجة عند اهل العراق خاطبهم بها الامام عليه السلام.
٧٦شواهد التنزيل ٢ : ١٥٦.
٧٧الامامة الإلهية:٣٤٣
٧٨تفسير القمي ١: ١٠٢

٧٩زاد المسير في علم التفسير ١ : ٣٢٩
٨٠التبيان في تفسير القرآن :٢ :٤٥٧
٨١ظ: مفردات الفاظ القرآن الراغب :٤٤٨ والتحقّيق في كلّمات القرآن ٦ : ٢٥٨
٨٢المفردات: ٤٤٨
٨٣الميزان ٣: ١٨٩
٨٤ظ :الجامع لأحكام القرآن القرطبي ٤ ٨٢ وظفتح القدير للشوكاني ١: ٣٣٨ وظ: مجمع البيان ٢: ٢٩١
٨٥البيان في روائع القرآن ١ :٢٠٧
٨٦الاستدّل العلى اصطفاء خديجة بنت خويلد . مجلة مآ بالعدد الخامس السنة الأولى ٢٠٠٧ ص : ٤٤
٨٧ظ المصدر نفسه

قائمة المصادر والمراجع

- ✓ القرآن الكريم
- ✓ اساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره ،محمد مصطفوي ،مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي ، الطبعة الاولى ،بيروت ٢٠٠٩م.
- ✓ الاستدّل العلى اصطفاء خديجة بنت خويلد . مجلة مآب العدد الخامس السنة الأولى ٢٠٠٧
- ✓ أضواء البيان ،الشنقيطي(ت-١٣٩٣) ،تحقّيق: مكتب البحوث والدراسات: ،بيروت. – دار الفكر للطباعة والنشر،١٤١٥ - ١٩٩٥م
- ✓ آلاء الرحمن في تفسير القرآن ،محمد جواد البلاغي النجفي،(ت : ١٣٥٢)،مطبعة العرفان – صيداء، ١٣٥٢ - ١٩٣٣ م.
- ✓ الإمامة الإلهية ، بحوث سماعة الأستاذ آية الله الشيخ محمد السند ، تأليف السيد محمد علي بحر العلوم ،منشورات لسان الصدق / قم / الطبعة الأولى / ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.
- ✓ الإمامة تلك الحقيقة القرآنية ، الدكتور زهير بيطار ، دار السيرة ،بيروت – لبنان ١٤٢٢ هـ . ق / ٢٠٠١ م
- ✓ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ،تأليف العلامة الفقيه المفسر آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، دار احياء التراث العربي ،الطبعة الاولى ،بيروت لبنان ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
- ✓ البرهانفيعلومالقرآنللإمامبدرالدينمحمدبنعبداللهالزركشيتحقيقمحمدأبوالفضلإبراهيمالطبعةالأولى ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ مدار أحياء الكتب العربية.
- ✓ البيان في روائع القرآن ،الدكتور تمام حسان، مطبوع الأوفسيت.
- ✓ التأويل وتفسير النص مقاربّة في الاشكالية ،مجلة المصباح تصدر عن الامانة العامة للعتبة الحسينية .العدد الثالث . ٢٠١٠م

- ✓ التبيان في تفسير القرآن ، تأليف : شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ)،تحقّيق و تصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي ،الطبعة : الأولى رمضان المبارك ١٢٠٩ هـ . ق، دار احياء التراث العربّي.
- ✓ التحرير و التنوير المعروف بتفسير ابن عاشور ، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ ، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م
- ✓ التحقّيق في كلّمات القرآن الكريم ،تأليف الشيخ حسن المصطفوي ، الطبعة الأولى : ١٤١٧ هـ،مؤسسة الطباعة والنشر ، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ، طهران.
- ✓ تحليل الخطا بالشعري ، د.محمد مفتاح ، دار التنوير للطباعة و النشر ، المركز الثقافي العربّي ، البيضاء ، المغربّط /١ ١٩٨٥
- ✓ ترتيب السّور حسب النّزول ، تأليف محمّد عزّة دروزة ،دار إحياء الكتب العربيّة / القاهرة الطبعة الثانية ١٤٢١ه - ٢٠٠٠م
- ✓ تفسير ابن عربي: إبن عربي، (ت ٦٣٨)،تحقيق: الشيخ عبدالوارث محمد علي ،الطبعة الأولى،١٤٢٢ - ٢٠٠١مدارالكتب العلمية ،لبنان- بيروت .
- ✓ تفسير البحر المحيط : لأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥)،تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض ،الطبعة : الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١م،دارالكتبالعلمية - لبنان/ بيروت .
- ✓ تفسير السمرقندي ، أبو الليث السمرقندي(ت ٣٨٣)،تحقيق : د. محمود مطرجي ،بيروت – دارالفكر ،د.ت.
- ✓ تفسير السمعاني ، السمعاني (ت: ٤٨٩)،تحقّيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم ، دار الوطن – الرياض السعودية ، الطبعة الأولى : ١٤١٨ – ١٩٩٧م.
- ✓ تفسير القمي ،لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمي (رحمه الله)،(من أعلام قرني ٣ - ٤ هـ)،صححه وعلق عليه وقد مله حجة الاسلام العلامة السيد طيب الموسوي الجزائري ،مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر الطبعة : الثالثة / شهر صفر عام ١٤٠٤ قم / إيران .
- ✓ التّفسير الكاشف ، محمّد جواد مغنيّة ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ،بيروت،آذار (مارس) ١٩٨١
- ✓ التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي ،الوفاة : ٦٠٦هـ ،الطبعة : الثالثة ، د.ت
- ✓ التفسير الوسيط أ . د . وهبة الزحيلي ،دار الفكر ، دمشق – سورية ، الطبعة الثانية ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م
- ✓ تفسير جوامع الجامع ، الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي قدس سره ،من أعلام القرن السادس الهجري ،تحقّيق مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسي نبقم المشرفة ، الطبعة : الأولى، : ١٤١٨ هـ .قم

- ✓ تلخيص البيان في مجازات القرآن ، تصنيف الشريف الرضي ، حققه وقدم له وصنع فهارسه ،محمد عبد الغني حسن ، دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى،القاهرة – ١٩٥٥
- ✓ جامع البيان عن تأويلآي القرآن تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ ه ، ضبط وتوثيق وتخريج ، صدق يجميل العطار ، دار الفكر ، للطباعة و النشروالتوزيع، ١٤١٥ ه / ١٩٩٥ م.
- ✓ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت – لبنان، ١٤٠٥ه – ١٩٨٥م.
- ✓ الخطاب والتأويل ، د. نصر حامد ابو زيد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب الطبعة الثالثة : ٢٠٠٨
- ✓ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ، شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي، دار احياء التراث العربي ،بيروت لبنان ،د.ت.
- ✓ زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ت ٥٩٧ ه حققه محمد بن عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع ،بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧ ه – ١٩٨٧ م
- ✓ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ،الحاكم الحسكاني ،تحقيق : الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة : الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩٠ م، مؤسسة الطبع و النشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي- مجمع إحياء الثقافة الإسلامية.
- ✓ عصمة الأنبياء : فخر الدين الرازي(ت٦٠٦)،مطبعة الشهيد – قم : ١٤٠٦هـ.
- ✓ عيون أخبار الرضا ،للشيخ أبي جعفر الصد وق محمد بن علي بن الحسين بنب ابويه القميقده المتوفى سنه ٣٨١هـ،صححه وقدم له وعلق عليه العلامة الشيخ حسين الأعلمي ،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ ه – ١٩٨٤ م.
- ✓ فتحالقديرالجامعبينفنيالروايةوالدرايةمنعلمالتفسير،تأليفمحمدبنعليبنمحمدالشوكاني(ت١٢٥٠ ه)،عالم الكتب د.ت.
- ✓ الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)،الثعلبي ،ت: ٤٢٧،تحقّيق : الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، الطبعة : الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠٢م،بيروت – لبنان – دا رإحياء التراث العربّي.
- ✓ لسانالعرب،للإمامالعلامةأبيالفضلجمالالدينمحمدبنمكرمابنمنظورالإفريقيالمصري، قم- إيران ، ١٤٠٥هـ -١٣٦٣ق

- ✓ مجمع البيان في تفسير القرآن ،تأليف أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي من أعلام القرن السادس الهجري ،حقّقه وعلق عليه لجنة من العلماء والمحقّقين الأخصائيين ،منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م
- ✓ معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، البغوي(ت٥١٠)،تحقيق : خالد عبد الرحمن العك، بيروت – دار المعرفة ، د.ت
- ✓ المعنىالقرآنيبينالتفسيروالتأويل،دراسةتحليليةمعرفيةفيالنصالقرآني،عباسأمير،الانتشارالعربي،بيروتلبنان،الطبعةالاولى ٢٠٠٨ م.
- ✓ المعنى والتأويل في النص القرآني، الاستاذ الدكتور عواطف كنوش المصطفى التميمي ، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان الاردن ، الطبعة الاولى ٢٠١٠م -١٤٣١هـ.
- ✓ مغني اللبيب عنكتب الأعاريب، تأليف أبى محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف أبن أحمد بن عبدالله بن هشام ،الأنصاري المصري (ت ٧٦١ هـ)،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ،قم - إيران ١٤٠٤ هـ - ق
- ✓ مفردات ألفاظ القرآن ، تأليف ، العلامة الراغب الأصفهاني ،ت ٤٢٥ هـ،تحقيق صفوان عدن ان داوودي ، منشورات طليعة النور، الطبعة الثانية : ١٤٢٧هـ.
- ✓ الميزان في تفسير القرآن، تأليف العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (قدس سره)،منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة،د. ت